۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ

وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا

لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا

وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم)أخذتم من مال الكفار قهرا بحق(مِّن شَيۡءٖ)قليلا كان أو كثيرا.

الْغَنِيمَةُ:-هِىَ الْمَالُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَ الرِّكَابِ.

الْفَيْءُ:-مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَالْأَمْوَالِ الَّتِى يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَ لَا وَارِثَ لَهُمْ وَ الْجِزْيَةُ وَ الْخَرَاجُ وَ نَحْوُ ذَلِكَ.

(مِّن شَيۡءٖ)تَوْكِيدٌ لِتَخْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَ كَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطِ وَ الْمَخِيطِ

(فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ)أى:و باقيه لكم أيها الغانمون لأنه أضاف الغنيمة إليهم و أخرج منها خمسها.

فدل على أن الباقى لهم يقسم على ما قسمه رسول اللّه ﷺ:-

1-للراجل سهم 2-و للفارس سهمان لفرسه و سهم له.

(فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ)و أما هذا الخمس فيقسم خمسة أسهم

الخمس الأول:-سهم للّه و لرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة لأن اللّه جعله له و لرسوله و اللّه ورسوله غنيان عنه

فعلم أنه لعباد اللّه.فإذا لم يعين اللّه له مصرفا دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

و الخمس الثانى:-(وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ)و هم قرابة النبىﷺمن بنى هاشم و بنى المطلب.

و أضافه اللّه إلى القرابة دليلا على أن العلة فيه مجرد القرابة فيستوى فيه غنيهم و فقيرهم ذكرهم و أنثاهم.

*وَ أَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى:-1-بَنِى هَاشِمٍ 2-وَ بَنِي الْمُطَّلِبِ

لِأَنَّ بَنِى الْمُطَّلِبِ وَازَرُوا بَنِى هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَ دَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشِّعْبِ غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ حِمَايَةً لَهُ:-

مُسْلِمُهُمْ:-طَاعَةً لِلَّهِ وَ لِرَسُولِه

وَ كَافِرُهُمْ:-حَمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ وَ أَنَفَةً وَ طَاعَةً لِأَبِي طَالِبٍ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ.

وَ أَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ وَ بَنُو نَوْفَلٍ-وَ إِنْ كَانُوا أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ-فَلَمْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ

بَلْ حَارَبُوهُمْ وَ نَابَذُوهُمْ وَ مَالَئُوا بُطُونَ قُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ الرَّسُولِ

وَ لِهَذَا كَانَ ذَمُّ أَبِي طَالِبٍ لَهُمْ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهِمْ لِشِدَّةِ قُرْبِهِمْ.

وَ لِهَذَا يَقُولُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِهِ :-

جَزَى الله عَنَّا عبدَ شمس و نَوفلا...عُقُوبة شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرَ آجلِ

بِمِيزَانِ قسْط لَا يَخيس شَعِيرَة لهُ...شَاهدٌ مِنْ نَفْسه غَيْرُ عائل

لَقَدْ سَفُهت أحلامُ قوم تَبَدَّلوا...بنى خَلَف قَيْضا بِنَا و الغَيَاطِل

و نحنُ الصَّميم مِنْ ذؤابة هاشمو...آل قُصَى في الخُطُوب الأوائل ( )

*البخارى3140عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ:-مَشَيْتُ أَنَا وَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَ بَنِى الْمُطَّلِبِ وَ تَرَكْتَنَا وَ نَحْنُ وَ هُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟(أى لأن الجميع من بنى عبد مناف ولكن عثمان رضي الله عنه من بنى عبد شمس وجبير رضي الله عنه من بنى نوفل)فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَ بَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ(فى الاستحقاق لنصرتهم له ﷺ قبل إسلامهم وبعده)»

و الخمس الثالث:-﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾و هم الذين فقدت آباؤهم و هم صغار جعل اللّه لهم خمس الخمس رحمة بهم حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم و قد فقد من يقوم بمصالحهم.

و الخمس الرابع:-﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾أى: المحتاجين الفقراء من صغار و كبار ذكور و إناث.

و الخمس الخامس:-﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾الغريب المنقطع به في غير بلده

و بعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف و لا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة و هذا هو الأولى

و جعل اللّه أداء الخمس على وجهه شرطا للإيمان فقال:-

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾و هو يوم (بدر) الذي فرق اللّه به بين الحق و الباطل. و أظهر الحق و أبطل الباطل.

﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾جمع المسلمين و جمع الكافرين أى:-إن كان إيمانكم باللّه و بالحق الذى أنزله اللّه على رسوله يوم الفرقان الذى حصل فيه من الآيات و البراهين ما دل على أن ما جاء به هو الحق

الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (277/1) .

(وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ)لا يغالبه أحد إلا غلبه41

نعمة النصر و الأمر بالثبات فى القتال و عدم التنازع 42-47

(إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا)أى:بعدوة الوادى القريبة من المدينة

(وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ)و هم بعدوته أى: جانبه البعيدة من المدينة فقد جمعكم واد واحد.

(وَٱلرَّكۡبُ)الذى خرجتم لطلبه و أراد اللّه غيره

(أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ)مما يلى ساحل البحر.

(وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ)أنتم و إياهم على هذا الوصف و بهذه الحال

(لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ)

أى:–لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم يصدفكم عن ميعادكم .

*وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَ مِنْهُمْ ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ وَ قِلَّةُ عَدَدِكُمْ مَا لَقِيتُمُوهُمْ

(وَلَٰكِن)اللّه جمعكم على هذه الحال

(لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا)أَرَادَ الله بِقُدْرَتِهِ(كَانَ مَفۡعُولٗا)مقدرا فى الأزل لا بد من وقوعه مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَ أَهْلِهِ وَ إِذْلَالِ الشِّرْكِ وَ أَهْلِهِ عَنْ غَيْرِ مَلَأٍ مِنْكُمْ فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ.

*البخارى 3951-عن كَعْب بْنَ مَالِكٍ ﷺيَقُولُ:-

لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَ لَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيُرِيدُ عِيرَ(الابل المحملة بالتجارة)قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ»(من غير موعد أو قصد اللقاء للحرب)

(لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ)

أى:ليكون حجة و بينة للمعاند فيختار الكفر على بصيرة و جزم ببطلانه فلا يبقى له عذر عند اللّه.

(وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ)أى:يزداد المؤمن بصيرة و يقينا بما أرى اللّه الطائفتين من:–

أدلة الحق و براهينه ما هو تذكرة لأولى الألباب كقوله(أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ)

الأنعام: ١٢٢

(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ)سميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات

(عَلِيمٌ)بالظواهر و الضمائر و السرائر و الغيب و الشهادة42

(إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ)

و كان اللّه قد أرى رسوله المشركين فى الرؤيا عددا قليلا فبشر بذلك أصحابه فاطمأنت قلوبهم و تثبتت أفئدتهم.

(وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ)الله إياهم(كَثِيرٗا)فأخبرت بذلك أصحابك

(لَّفَشِلۡتُمۡ)لَجَبُنْتُمْ عَنْهُمْ(وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ)وَ اخْتَلَفْتُمْ (فِي ٱلۡأَمۡرِ)فِيمَا بَيْنَكُمْ

*فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم و منكم من لا يرى ذلك فوقع من الاختلاف و التنازع ما يوجب الفشل.

(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ)فلطف بكم و مِنْ ذَلِكَ: بِأَنْ أَرَاكَهُمْ قَلِيلًا

(إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)أى: بما فيها من ثبات و جزع و صدق و كذب

فعلم اللّه من قلوبكم ما صار سببا للطفه و إحسانه بكم و صدق رؤيا رسوله فأرى اللّه المؤمنين عدوهم قليلا في أعينهم كقوله (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) غافر:19 43

(وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا)

*وَ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى أَغْرَى كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخَرِ و قلّله فِي عَيْنِهِ لِيَطْمَعَ فِيهِ وَ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ. فَلَمَّا الْتَحَمَ الْقِتَالُ وَ أَيَّدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ بَقِيَ حِزْبُ الْكُفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضِعْفَيْهِ كَمَا قَالَ{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّفِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأولِي الأَبْصَارِ} [آلِ عِمْرَانَ: 13]
وَ هَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فَإِنَّ كُلًّا مِنْهَا حَقٌّ وَ صِدْقٌ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَ الْمِنَّةُ.

(وَيُقَلِّلُكُمۡ)–يا معشر المؤمنين–(فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ)فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة لتقدم كل منهما على الأخرى

(لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ)

من نصر المؤمنين و خذلان الكافرين و قتل قادتهم و رؤساء الضلال منهم و لم يبق منهم أحد له اسم يذكر فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام فصار أيضا لطفا بالباقين الذين مَنَّ اللّه عليهم بالإسلام.

(وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ)أمور الخلائق كلها ترجع إلى اللّه فيميز الخبيث من الطيب و يحكم فى الخلائق بحكمه العادل الذى لا جور فيه و لا ظلم44

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ)طائفة من الكفار تقاتلكم.

(فَٱثۡبُتُواْ)لقتالها و استعملوا الصبر و حبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة التى عاقبتها العز و النصر.
*هَذَا تَعْلِيمُ اللَّهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ اللِّقَاءِ وَ طَرِيقَ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ فَقَالَ

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ)

*البخارى3024-عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ:-حَدَّثَنِى سَالِمٌ أَبُو النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ كُنْتُ كَاتِبًا لَهُ

قَالَ:كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى حِينَ خَرَجَ إِلَى الحَرُورِيَّةِ فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ:-

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِى لَقِىَ فِيهَا العَدُوَّ انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَامَ فِى النَّاسِ فَقَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ وَ سَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَ اعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ»ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ وَ مُجْرِىَ السَّحَابِ وَ هَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»

(وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا)و استعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر اللّه

(لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)أى: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم فالصبر و الثبات و الإكثار من ذكر اللّه من أكبر الأسباب للنصر﴿٤٥﴾

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾

(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ)في استعمال ما أمرا به و المشى خلف ذلك فى جميع الأحوال.

(وَلَا تَنَٰزَعُواْ)تنازعا يوجب تشتت القلوب و تفرقها

(فَتَفۡشَلُواْ)تجبنوا

(وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ)تنحل عزائمكم و تفرق قوتكم و يرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة اللّه و رسوله.

(وَٱصۡبِرُوٓاْۚ)نفوسكم على طاعة اللّه

(إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)بالعون و النصر و التأييد و اخشعوا لربكم و اخضعوا له46

(وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا)دفعا للحق

(وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ)

أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه و هذا الذى أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر و البطر فى الأرض و ليراهم الناس و يفخروا لديهم(المفاخرة و التكبر على الناس)و المقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل اللّه من أراد سلوكه

(وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ)

قال عدد من أهل العلم:-هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَوْمَ بَدْرٍ.

(وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ)

فلذلك أخبركم بمقاصدهم و حذركم أن تشبهوا بهم فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة

فليكن قصدكم في خروجكم :-

1-وجه اللّه تعالى و إعلاء دين اللّه

2-و الصد عن الطرق الموصلة إلى سخط اللّه و عقابه

3-و جذب الناس إلى سبيل اللّه القويم الموصل لجنات النعيم47

مكر و خديعة الشيطان لأتباعه 48-49

(وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ)حسّنها فى قلوبهم و خدعهم.

(وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ)فإنكم فى عَدَدٍ و عُدَدٍ و هيئة لا يقاومكم فيها محمد و من معه.

(وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ)(مجيركم و فى ذمته و حماه و ليس المراد انه جار لهم أى مقيم بجوارهم)

من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته لأن إبليس قد تبدّى لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم

المدلجي و كانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان:أنا جار لكم فاطمأنت نفوسهم و أتوا على حرد قادرين.

(فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ)المسلمون و الكافرون فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا

و (نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ)ولى مدبرا(وَقَالَ)لمن خدعهم و غرهم:-

(إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ)الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم(مَا لَا تَرَوۡنَ)

(إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ)بأن يعاجلنى بالعقوبة فى الدنيا

(وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ)

و من المحتمل أن يكون الشيطان قد سول لهم و وسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس و أنه

جار لهم فلما أوردهم مواردهم نكص عنهم و تبرأ منهم كما قال تعالى:-

(كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ)الحشر 48

(إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)شك و شبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا-مع

قِلَّتهم-على قتال المشركين مع كثرتهم.

(غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ)المسلمين(دِينُهُمۡۗ)فأوردهم هذه الموارد

*أى:أوردهم الدين الذى هم عليه هذه الموارد التى لا يدان لهم بها و لا استطاعة لهم بها يقولونه احتقارا لهم

و استخفافا لعقولهم و هم-و اللّه-الأخِفَّاءُ عقولا الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التى لا يقدم عليها الجيوش العظام

فإن المؤمن المتوكل على اللّه الذى يعلم أنه ما من حول و لا قوة و لا استطاعة لأحد إلا باللّه تعالى

و أن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه

و لو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشىء قد كتبه اللّه عليه و علم أنه على الحق

و أن اللّه تعالى حكيم رحيم فى كل ما قدره و قضاه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من قوة و كثرة و كان واثقا بربه مطمئن القلب لا فزعا و لا جبانا

و لهذا قال(وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ)لا يغالب قوته قوة (حَكِيمٌ)فيما قضاه و أجراه49

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا)

بآيات اللّه حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم و قد اشتد بهم القلق و عظم كربهم

و (الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم و نفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

و لهذا قال:(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)العذاب الشديد المحرق ذلك العذاب حصل لكم غير ظلم و لا جور من ربكم ﴿٥٠﴾

تخوين الكفار و ضرب المثل بمن قبلهم صفاتهم و كيفية التعامل معهم 50-59

(ذَٰلِكَ)الْجزَاءُ(بِمَا)بِسَبَبِ(قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

و هذه سنة اللّه فى الأولين والآخرين فإن دأب هؤلاء المكذبين أى:–سنتهم و ما أجرى اللّه عليهم من الهلاك بذنوبهم

*وَ هَذَا السِّيَاقُ–وَ إِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقْعَةَ بَدْرٍ–وَ لَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ وَ لِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ بَلْ قَالَ{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}وَ فِي سُورَةِ الْقِتَالِ مِثْلُهَا

وَ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ:{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ [الْأَنْعَامِ: 93]أَيْ:بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ يَأْمُرُونَهُمْ إِذ اسْتَصْعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ وَ امْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا.

وَ ذَلِكَ إِذْ بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بن عازب:-

*أحمد 18534-قال النبي ﷺ:-

وَ إِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَ إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ:-

أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَ غَضَبٍ "

قَالَ:فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ

*وَ لِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ: (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)

أَيْ: لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِى لَا يَجُورُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى وَ تَقَدَّسَ وَ تَنَزَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَ لِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عِنْدَ مُسْلِمٍ

*مسلم 2577- عَنْ أَبِي ذرٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:-

«يَا عِبَادِى إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَ جَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ

يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ أَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ

يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَ آخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَ آخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَ آخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَ جِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ

يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَ مَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»﴿٥١﴾ و لهذا قال تعالى:–

ما نزل بالمشركين يومئذ سُنَّة الله فى عقاب الطغاة(كَدَأْبِ)كشأن

(ءَالِ فِرْعَوْنَ)من أمثال فرعون و السابقين له

(وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)من الأمم المكذبة

(كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ)بالعقاب فالله لا يعجزه أحد

(بِذُنُوبِهِمْ)بسبب ذنوبهم (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ)هود: ٥٦ (إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)﴿٥٢﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾

(ذَٰلِكَ)العذاب الذى أوقعه اللّه بالأمم المكذبين و أزال عنهم ما هم فيه من النعم و النعيم

(بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ)

بسبب ذنوبهم و تغييرهم ما بأنفسهم فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين و الدنيا بل يبقيها و يزيدهم منها إن ازدادوا له شكرا.

(حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ)من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة اللّه و يبدلوها كفرا فيسلبهم إياها و يغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

و للّه الحكمة في ذلك و العدل و الإحسان إلى عباده حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم و حيث جذب قلوب أوليائه إليه بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

*كقوله(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ)الرعد: ١١

(وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ)يسمع جميع ما نطق به الناطقون سواء من أسر القول و من جهر به

(عَلِيمٞ)و يعلم ما تنطوي عليه الضمائر و تخفيه السرائر فيجرى على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه و جرت به مشيئته53

(كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ)أى: فرعون و قومه

*كَصُنْعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ وَ أَمْثَالِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَ سَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ الَّتِي أَسْدَاهَا إِلَيْهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

(وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ)حين جاءتهم

(فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ) كل بحسب جرمه.

(وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلٌّ)من المهلكين المعذبين (كَانُواْ ظَٰلِمِينَ)

لأنفسهم ساعين في هلاكها لم يظلمهم اللّه و لا أخذهم بغير جرم اقترفوه

فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم فيحل اللّه بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين54

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ)ما دبَّ على الأرض(عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)المصرُّون على الكفر

(فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)يصدقون رسل الله و لا يُقرون بوحدانيته و لا يتبعون شرعه ﴿٥٥﴾

(ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ)

مِن أولئك الأشرار اليهود الذين دخلوا معك فى المعاهدات بأن لا يحاربوك و لا يظاهروا عليك أحدًا

(ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ)المرة تلو المرة

(وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ)يخافون الله.

هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث:-1-الكفر2-و عدم الإيمان 3-و الخيانة

بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه و لا قول قالوه

هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير و الكلاب و غيرها

لأن الخير معدوم منهم و الشر متوقع فيهم فإذهاب هؤلاء و محقهم هو المتعين لئلا يسرى داؤهم لغيرهم

و لهذا قال:(فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ)تجدنهم تَغْلِبُهُمْ وَ تَظْفَرُ بِهِمْ

(فِي ٱلۡحَرۡبِ)فى حال المحاربة بحيث لا يكون لهم عهد و ميثاق.

(فَشَرِّدۡ)نكل(بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ)غيرهم و أوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم

(لَعَلَّهُمۡ)أى من خلفهم(يَذَّكَّرُونَ)صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم

و هذه من فوائد العقوبات و الحدود المرتبة على المعاصى:-

1-أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصى

2–بل و زجرا لمن عملها أن لا يعاودها.

و دل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر–و لو كان كثير الخيانة سريع الغدر–أنه إذا أُعْطِيَ عهدا لا يجوز خيانته و عقوبته.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً)أي:–و إذا كان بينك و بين قوم عهد و ميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

(فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ)عهدهم أى:–ارمه عليهم و أخبرهم أنه لا عهد بينك و بينهم.

(عَلَىٰ سَوَآءٍۚ)أى: حتى يستوى علمك و علمهم بذلك

و لا يحل لك أن تغدرهم أو تسعى فى شيء مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك.

*أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَ عِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ وَ هُمْ حَرْبٌ لَكَ وَ أَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ أَيْ: تَسْتَوِي أَنْتَ وَ هُمْ فِي ذَلِكَ قَالَ الرَّاجِزُ:-

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدر الأَعْداء ... حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ)بل يبغضهم أشد البغض فلا بد من أمر بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة.

و دلت الآية على:–

1–أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك و لعدم الفائدة و لقوله:–(عَلَى سَوَاء) و هنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم.

2–و دل مفهومها أيضا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته﴿٥٨﴾

(وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)بربهم المكذبون بآياته أنهم(سَبَقُوٓاْۚ)اللّه و فاتوه

(إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ)لن يُفْلِتوا من عذاب الله و اللّه لهم بالمرصاد.

*و له تعالى الحكمة البالغة فى إمهالهم و عدم معاجلتهم بالعقوبة التى من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين و امتحانهم و تزودهم من طاعته و مراضيه ما يصلون به المنازل العالية و اتصافهم بأخلاق و صفات لم يكونوا بغيره بالغيها

*بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرِ قُدْرَتِنَا وَ فِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا فَلَا يُعْجِزُونَنَا كَمَا قَالَ{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[العَنْكَبُوتِ: 4]أَيْ: يَظُنُّونَ وَ قَالَ{لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[النُّورِ: 57]وَ قَالَ{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ196مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[آلِ عِمْرَانَ]﴿٥٩﴾

فلهذا قال لعباده المؤمنين–(وَأَعِدُّواْ لَهُم)لأعدائكم الكفار الساعين فى هلاككم و إبطال دينكم.

(مَا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ)كل ما تقدرون عليه من الرأْى و السياسة و القوة العقلية و البدنية و أنواع الأسلحة فدخل فى ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة و الآلات من المدافع و الرشاشات و البنادق و الطيارات الجوية و المراكب البرية و البحرية و الحصون و القلاع و الخنادق و آلات الدفاع و التى بها يتقدم المسلمون و يندفع عنهم به شر أعدائهم و تَعَلُّم الرَّمْى و الشجاعة و التدبير

*مسلم1917عَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ ﷺيَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺوَ هُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:-

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60]"أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ "

(قوله ﷺفى تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ألا أن القوة الرمى قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفى الأحاديث بعده فضيلة الرمى والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد فى سبيل الله تعالى وكذلك المثاقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيل وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك)

*البخارى 2852 عن عُرْوَةُ البَارِقِيُّ ﷺ:-

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ:الأَجْرُ(الثواب فى الآخرة) وَ المَغْنَمُ (الغنيمة في الدنيا)

و لهذا قال تعالى: (وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ)

و هذه العلة موجودة فيها فى ذلك الزمان و هى إرهاب الأعداء و الحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها كالسيارات البرية و الهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورا بالاستعداد بها و السعى لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة وجب ذلك

لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

(تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ)ممن تعلمون أنهم أعداؤكم.

(وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ)ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذى يخاطبهم الله به هم المنافقون.

وَ هَذَا أَشْبَهُ الْأَقْوَالِ وَ يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ:-

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ[التَّوْبَةِ: 101]

(ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ)فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم

و من أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية فى جهاد الكفار.و لهذا قال تعالى مرغبا فى ذلك:—

(وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)قليلا كان أو كثيرا

(يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ)على التمام و الكمال أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة حتى إن النفقة في سبيل اللّٰه تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ)لا تنقصون من أجرها و ثوابها شيئا.

*مسلم164-(1151)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ

*كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [الْبَقَرَة:261] (٦٠)

*وَ لِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الصُّلْحَ وَ وَضْعَ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺتِسْعَ سِنِينَ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنَ الشُّرُوطِ الْأُخَرِ.

(وَإِن جَنَحُواْ)مال الكفار المحاربون(لِلسَّلۡمِ)أى:الصلح و ترك القتال.

(فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على ربك

*فإن فى ذلك فوائد كثيرة:-

1-أن طلب العافية مطلوب كل وقت فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم.

2-أن فى ذلك إجماما لقواكم و استعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج لذلك.

3-أنكم إذا أصلحتم و أمن بعضكم بعضا وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر فإن الإسلام يعلو و لا يعلى عليه

*فكل من له عقل و بصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان لـــ:-

1-حسنه فى أوامره و نواهيه

2-و حسنه فى معاملته للخلق و العدل فيهم و أنه لا جور فيه و لا ظلم بوجه

فحينئذ يكثر الراغبون فيه و المتبعون له.

فصار هذا السلم عونا للمسلمين على الكافرين و لا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة

و هي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين و انتهاز الفرصة فيهم(٦١)

فأخبرهم اللّه أنه حسبهم و كافيهم خداعهم و أن ذلك يعود عليهم ضرره فقال:-

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾
وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ
وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾
ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ
وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ
أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾
لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾
فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

(وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ)و إن أراد الذين عاهدوك المكر بك

(فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ)أى: كافيك ما يؤذيك و هو القائم بمصالحك و مهماتك

فقد سبق لك من كفايته لك و نصره ما يطمئن به قلبك.

فـــ(هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ)أى: أعانك بمعونة سماوية و هو النصر منه الذى لا يقاومه شىء

و معونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك62

(وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ)فاجتمعوا و ائتلفوا و ازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم و لم يكن هذا بسعى أحد و لا بقوة غير قوة اللّه

فــ(لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا)من ذهب و فضة و غيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة و الفرقة الشديدة

(مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ)لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا اللّه تعالى.

*لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَ الْبَغْضَاءِ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَ أُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسَلْسُلُ فِي الشَّرِّ حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ

كما قَالَ{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[آلِ عِمْرَانَ: 103].

*البخارى 4330 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ:-

لَمَّا أَفَاءَ(أعطاه الغنائم وأصل الفيئ الرجوع فكأن الأموال فى الأصل للمسلمين فغلب عليها الكفار ثم رجعت إليهم)اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺيَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ لَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا(حزنوا)إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ(لم ينلهم ما نال الناس من العطاء)فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ:-

«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَ كُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي وَ عَالَةً(جمع عائل وهو الفقير) فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا:- اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمَنُّ(من المن وهو الفضل)

قَالَ:«مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»قَالَ:كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ

قَالَ:"لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَ كَذَا(كناية عما يقال)أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَ الْبَعِيرِ وَ تَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺإِلَى رِحَالِكُمْ لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ

وَ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِىَ الأَنْصَارِ وَ شِعْبَهَا الأَنْصَارُ شِعَارٌ(هو الثوب الذى يلى الجلد من البدن)

وَ النَّاسُ دِثَارٌ(هو الثوب الذى يكون فوق الشعار)إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِى أُثْرَةً(ينفرد بالمال المشترك ونحوه دونكم ويفضل عليكم بذلك غيركم)

فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ(الذى هو لى فى الجنة)

(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ)جمع بينها على الإيمان فأصبحوا إخوانًا متحابين

(إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)و من عزته أن ألف بين قلوبهم و جمعها بعد الفرقة كما قال(وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-قَرَابَةُ الرَّحِمِ تُقْطَعُ وَ مِنَّةُ النِّعْمَةِ تُكْفَرُ وَ لَمْ يُرَ مِثْلُ تَقَارُبِ الْقُلُوبِ يَقُولُ اللَّهُ:-

{لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ}63

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ)كافيك(ٱللَّهُ)(و)كافى(وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

و هذا وعد من اللّه لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية و النصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذى هو الإيمان و الاتباع فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين و الدنيا و إنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها64

التحريض على القتال و الأسر فى الحرب و الغنائم 65-71

*يقول تعالى لنبيه ﷺ:-(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ)حث و أنهض

(ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ)بكل ما يقوى عزائمهم و ينشط هممهم من الترغيب في الجهاد و مقارعة الأعداء و الترهيب من ضد ذلك و ذكر فضائل الشجاعة و الصبر و ما يترتب على ذلك من خير فى الدنيا و الآخرة و ذكر مضار الجبن و أنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين و المروءة و أن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم

(وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)النساء: ١٠٤

*مسلم1901 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ:-

بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺبُسَيْسَةَ(قال القاضى هكذا هو فى جميع النسخ قال والمعروف فى كتب السيرة بسبس بن عمرو ويقال ابن بشر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم قلت (أى الإمام النووى) يجوز أن يكون أحد اللفظين اسما له والآخر لقبا)عَيْنًا(متجسسا ورقيبا)يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ(هى الدواب

التي تحمل الطعام وغيره قال في المشارق العير هى الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات قال ولا تسمى عيرا إلا إذا كانت كذلك وقال الجوهرى فى الصحاح العير الإبل تحمل الميرة جمعها عيرات)فَجَاءَ وَ مَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَ غَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:

لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ:-فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺفَتَكَلَّمَ

فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً (أى شيئا نطلبه)فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»

فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ(مركوباتهم)فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ:

«لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ(الظهر الدواب التي تركب)حَاضِرًا»

فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَ أَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ وَ جَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -

«لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»(أى قدامه متقدما فى ذلك الشىء لئلا يفوت شىء من المصالح التى لا تعلمونها)

فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»

قَالَ:-يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ:-يَا رَسُولَ اللهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ؟

قَالَ: «نَعَمْ»قَالَ:بَخٍ بَخٍ(فيه لغتان إسكان الخاء و كسرها منونا و هى كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير)

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِك بَخٍ بَخٍ؟»

قَالَ:-لَا وَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا رَجَاءَةَ(هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاءة بالمد و نصب التاء و فى بعضها رجاء بلا تنوين وفى بعضها بالتنوين وكله صحيح معروف في اللغة ومعناه و الله ما فعلته لشىء إلا رجاء أن أكون من أهله)أَنْ أَ كُونَ مِنْ أَهْلِهَا

قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِه(جعبة النشاب)فَجَعَلَ يَأْ كُلُ مِنْهُنَّ

ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ:-

فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ

(إِن يَكُن مِّنكُمْ)أيها المؤمنون(عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ)

(وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار

و ذلك بأن الكفار (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ)

لا علم عندهم بما أعد اللّه للمجاهدين فى سبيله فهم يقاتلون لأجل العلو فى الأرض و الفساد فيها.

و أنتم تفقهون المقصود من القتال أنه:-

1-لإعلاء كلمة اللّه و إظهار دينه 2-و الذب عن كتاب اللّه 3-و حصول الفوز الأكبر عند اللّه.

و هذه كلها دواع للشجاعة و الصبر و الإقدام على القتال.

*الصحيح المسند من أسباب النزول: البخارى 4653 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

لَمَّا نَزَلَتْ: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ فَجَاءَ التَّخْفِيفُ

"فَقَالَ:-{الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}قَالَ:-

«فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ العِدَّةِ(العدد الذى يجب عليهم الثبات عند لقائه)

*البخارى 4652 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا نَزَلَتْ:-{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}

وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ فَكُتِبَ(فرض)عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ "

فَقَالَ سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنْ لاَيَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ-ثُمَّ نَزَلَتْ:{الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} [الأنفال: 66] الآيَةَ

فَكَتَبَ أَنْ لاَ يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ"وَ زَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً:نَزَلَتْ: {حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ}[الأنفال: 65]قَالَ سُفْيَانُ:-وَ قَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ:-«وَ أُرَى الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا»

(الحكم المذكور في الجهاد فإن كان من يفعل المنكر أكثر من اثنين جاز للواحد عدم الإنكار وإن كانا اثنين فأقل وجب الإنكار)

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَقُلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَ أَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِلَ عِشْرُونَ مِائَتَيْنِ وَ مِائَةٌ أَلْفًا فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَنَسَخَهَا بِالْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ: {الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا} الْآيَةَ

فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْرِ مِنْ عَدُوٍّ لَهُمْ لَمْ يَنْبَغِ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ

وَ إِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُهُمْ وَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ ٦٥

*ثم إن هذا الحكم خففه اللّه على العباد فقال:-

(ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ)عدم جلد وقدرة على قتال عشرة أمثالكم

*فلذلك اقتضت رحمته و حكمته التخفيف

(فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)

بعونه و تأييده.

و هذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار و أن اللّه يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

و لكن معناها و حقيقتها الأمر و أن اللّه أمر المؤمنين–فى أول الأمر–أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة و العشرة من المائة و المائة من الألف.

ثم إن اللّه خفف ذلك فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار

و لكن يرد على هذا أمران:–

1– أنها بصورة الخبر و الأصل فى الخبر أن يكون على بابه و أن المقصود بذلك الامتنان و الإخبار بالواقع.

2–تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

و مفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين فإنه يجوز لهم الفرار و لو أقل من مثليهم إذا غلب على ظنهم الضرر كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

و يجاب عن الأول بأن قوله:-(الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ)إلى آخرها:–

دليل على أن هذا أمر لازم و أمر محتم ثم إن اللّه خففه إلى ذلك العدد.

فهذا ظاهر في أنه أمر و إن كان في صيغة الخبر.

و قد يقال:إن فى إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر.و هى تقوية قلوب المؤمنين

و البشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

و يجاب عن الثاني:–أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث على الصبر و أنه ينبغى منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية

و الأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر اللّه به من النصر لهذا العدد القليل ﴿٦٦﴾

*الصحيح المسند من أسباب النزول: المستدرك 3270 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-
اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي الْأُسَارَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ:-قَوْمُكَ وَ عَشِيرَتُكَ فَخَلِّ سَبِيلَهُمْ.
فَاسْتَشَارَ عُمَرُ فَقَالَ: اقْتُلْهُمْ.قَالَ:-فَفَدَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:-
{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ}[الأنفال: 67] إِلَى قَوْلِهِ{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا}[الأنفال: 69]
قَالَ:-فَلَقِيَ النَّبِيُّ ﷺعُمَرَ قَالَ:-كَادَ أَنْ يُصِيبَنَا فِي خِلَافِكَ بَلَاءٌ.

*هذه معاتبة من اللّه لرسوله و للمؤمنين يوم (بدر) إذ أسروا المشركين و أبقوهم لأجل الفداء.

و كان رأى:أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى هذه الحال:–قتلهم و استئصالهم.

(مَا كَانَ)ما ينبغى و لا يليق(لِنَبِيٍّ)إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه و يسعوا لإخماد دينه و أن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد اللّه

(أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ)أن يتسرع إلى أسرهم و إبقائهم لأجل الفداء الذى يحصل منهم و هو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم و إبطال شرهم.

(حَتَّىٰ يُثْخِنَ)يبالغ فى القتل(فِي ٱلْأَرْضِ)

*فما دام لهم شر وصولة فالأوفق أن لا يؤسروا.

*فإذا أثخنوا و بطل شرهم و اضمحل أمرهم فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم و إبقائهم.

(تُرِيدُونَ)بأخذكم الفداء و إبقائهم

عَرَضَ ٱلدُّنْيَا)أى:لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

(وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۗ)بإعزاز دينه و نصر أوليائه و جعل كلمتهم عالية فوق غيرهم فيأمركم بما يوصل إلى ذلك.

(وَٱللَّهُ عَزِيزٌ)كامل العزة و لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل

(حَكِيمٌ)لكنه حكيم يبتلى بعضكم ببعض﴿٦٧﴾

(لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ)به القضاء و القدر أنه قد أحل لكم الغنائم و أن اللّه رفع عنكم–أيها الأمة–العذاب
*قيل:-سَبَقَ مِنْهُ أَلَّا يُعَذِّبَ أَحَدًا شَهِدَ بَدْرًا
*قيل:-لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ
*قيل:-فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْمَغَانِمَ وَ الْأُسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ

*مسلم (521)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى
1-كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَ أَسْوَدَ
2-وَ أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَ لَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي
3-وَ جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَ مَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ
4-وَ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَىْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ
5-وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»

*أحمد 208 - عن ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ حَدَّثَنِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ:-
نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَ هُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَ نَيِّفٌ وَ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ
فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ وَ عَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَ إِزَارُهُ ثُمَّ قَالَ:-"اللهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِى؟
اللهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا "
قَالَ:فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَ يَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ ثُمَّ الْتَزَمَهُ
مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ قَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ
وَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}[الأنفال: 9]
فَلَمَّا كَانَ يَوْمُئِذٍ وَ الْتَقَوْا فَهَزَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَ أُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا
فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَ عَلِيًّا وَ عُمَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَ الْعَشِيرَةُ وَ الْإِخْوَانُ
فَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِدْيَةَ فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَى الْكُفَّارِ وَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُونَ لَنَا
عَضُدًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَ اللهِ مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْرٍ
وَ لَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِى مِنْ فُلَانٍ-قَرِيبًا لِعُمَرَ-فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ وَ تُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ
وَ تُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ فُلَانٍ أَخِيهِ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ
هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَ أَئِمَّتُهُمْ وَ قَادَتُهُمْ فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَ لَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ
فَأَخَذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ.فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ عُمَرُ: غَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ
فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَ أَبُو بَكْرٍ وَ إِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ فَقُلْتُ:-يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَ صَاحِبَكَ؟
فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَ إِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-
الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ "-لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ –
وَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ}إِلَى:{لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ}[الأنفال: 67 - 68] مِنَ الْفِدَاءِ ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمُ.
فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ
وَ فَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَ هُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَ سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ
وَ أَنْزَلَ اللهُ{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران: 165] بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ.

(لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ)من الأسارى

(عَذَابٌ عَظِيمٌ)و فى الحديث:(لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلا عمر) ﴿٦٨﴾

(فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا)و هذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحل لها الغنائم و لم يحلها لأمة قبلها.

*فعند ذلك أَخذوا من الاسارى الفداء

(وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ)فى جميع أموركم و لازموها شكرا لنعم اللّه عليكم.

(إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ)يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب و يغفر لمن لم يشرك به شيئا جميع المعاصى.

(رَّحِيمٌ)بكم حيث أباح لكم الغنائم و جعلها حلالا طيبا﴿٦٩﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا)

هذه نزلت فى أسارى يوم بدر و كان فى جملتهم العباس عم رسول اللّه ﷺ فلما طلب منه الفداء ادَّعى أنه مسلم قبل ذلك فلم يسقطوا عنه الفداء فأنزل اللّه تعالى جبرًا لخاطره و من كان على مثل حاله.

(يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا)من المال بأن ييسر لكم من فضله خيرا و أكثر(مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ)

(وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ)ذنوبكم و يدخلكم الجنة

و قد أنجز اللّه وعده للعباس و غيره فحصل له–بعد ذلك –من المال شيء كثير حتى إنه مرة لما قدم على النبى ﷺمال كثير أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)

وَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ جَمَاعَةٍ سَمَّاهُمْ قَالُوا:-بَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رسول الله ﷺفى فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ فَفَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا وَ قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-"اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ

وَ أَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فَافْتَدِ نَفْسَكَ و ابنىْ أَخِيكَ:-

نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ و عقيل بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ حَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرٍو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ قَالَ:-مَا ذَاكَ عِنْدِى يَا رَسُولَ اللَّهِ!

قَالَ: "فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَ أُمُّ الْفَضْلِ؟ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أصبتُ فِي سَفَرِى هَذَا فَهَذَا الْمَالُ الَّذى دَفَنْتُهُ لبَنى الْفَضْلِ وَ عَبْدِ اللَّه و قُثَم".

قَالَ:وَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِى و غيرُ أُمِّ الْفَضْلِ

فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي:-عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ:-
لَا ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ". فَفَدَى نَفْسَهُ وَ ابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَ حَلِيفَهُ
وَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾

(وَإِن يُرِيدُوا)الذين أَطْلَقْتَ صراحهم-أيها النبى-من الأسرى

(خِيَانَتَكَ)أى:-الغدر بك مرة أخرى بالسعى لحربك و منابذتك فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ فلا تَيْئسْ

(فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ)بَدْرٍ بِالْكُفْرِ بِهِ بِالْإِسَارِى يَوْمَ بَدْرٍ

(فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)فنصرك الله عليهم فليحذروا خيانتك فإنه تعالى قادر عليهم و هم تحت قبضته

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ)بكل شىء و بما تنطوى عليه الصدور

(حَكِيمٌ)فى تدبير شؤون عباده يضع الأشياء مواضعها

و من علمه و حكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة و أن تكفل بكفايتكم شأن الأسرى و شرهم إن أرادوا خيانة﴿٧١﴾

قوة رابطة الإسلام و الحذر من الموالاة 72-75

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا)صدَّقوا الله و رسوله و عملوا بشرعه

(وَهَاجَرُوا)إلى دار الإسلام أو بلد يتمكنون فيه من عبادة ربهم

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)بالمال و النفس

(وَالَّذِينَ ءَاوَوا)أنزلوا المهاجرين فى دورهم و واسوهم بأموالهم

(وَنَصَرُوا)دين الله(أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ)نصراء(بَعْضٍ)

*البخارى 6747 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:-{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} [النساء: 33] (وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) قَالَ:-
كَانَ المُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ الأَنْصَارِيُّ المُهَاجِرِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺبَيْنَهُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} [النساء: 33] قَالَ: نَسَخَتْهَا: (وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ)

هذا عقد موالاة و محبة عقدها اللّه بين:-

1–المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل اللّه و تركوا أوطانهم للّه لأجل الجهاد فى سبيل اللّه

2–و بين الأنصار الذين آووا رسول اللّه ﷺو أصحابه و أعانوهم فى ديارهم و أموالهم و أنفسهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض لكمال إيمانهم و تمام اتصال بعضهم ببعض.

(و)أما(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)من دار الكفر

(مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ)فلستم مكلفين بحمايتهم و نصرتهم(حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا)

*فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم فى وقت شدة الحاجة إلى الرجال فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء

*هَذَا هُوَ الصِّنفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهم فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ وَ لَا فِي خُمسها إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالَ

لكنهم(وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ)

لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم-و إن وقع عليهم ظلم من الكفار فطلبوا نصرتكم

(فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ)فاستجيبوا لهم و القتال معهم

و أما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم

(إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ)عهد بترك القتال فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم فلا تعينوهم عليهم لأجل ما بينكم و بينهم من الميثاق.

(وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ)يعلم ما أنتم عليه من الأحوال فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم﴿٧٢﴾

*البخارى6764 عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-«لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ وَ لاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ»

*لما عقد الولاية بين المؤمنين قال:–

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ)نصراء(بَعۡضٍۚ)فلقد جمعهم الكفر فلا يواليهم إلا كافر مثلهم.

(إِلَّا تَفۡعَلُوهُ)أى:موالاة المؤمنين و معاداة الكافرين بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم أو واليتم الكافرين و عاديتم المؤمنين

(تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ)عن دين الله(وَفَسَادٞ كَبِيرٞ)عريض بالصد عن سبيل الله و تقوية دعائم الكفر.

فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من:–

1–اختلاط الحق بالباطل و المؤمن بالكافر

2–و عدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد و الهجرة

3–و غير ذلك من مقاصد الشرع و الدين التى تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض﴿٧٣﴾

*لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَ أَنَّهُ سَيُجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ عَنْ ذُنُوبٍ إِنْ كَانَتْ وَ بِالرِّزْقِ الْكَرِيمِ وَ هُوَ الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ الشَّرِيفُ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا لَا يَنْقَطِعُ وَ لَا يَنْقَضِي وَ لَا يُسْأَمُ وَ لَا يُمَلُّ لِحُسْنِهِ وَ تَنَوُّعِهِ.

*ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

كَمَا قَالَ:{وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ} الْآيَةَ [التَّوْبَةِ: 100] وَ قَالَ:{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَااغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الْحَشْرِ:10]

*البخارى 6168 عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ﷛:-عَنِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ قَالَ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»

*الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين و الأنصار.

و هذه الآيات فى بيان مدحهم و ثوابهم فقال:–

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بالله و رسوله

(وَهَاجَرُواْ)و تركوا ديارهم قاصدين دار الإسلام أو بلدًا يتمكنون فيه من عبادة ربهم

(وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)لإعلاء كلمة الله

(وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ)واسوهم بالمال و التأييد

(وَّنَصَرُوٓاْ)إخوانهم المهاجرين

(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ)الصادقون من المهاجرين و الأنصار

(حَقًّاۚ)لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة و النصرة و الموالاة بعضهم لبعض و جهادهم لأعدائهم من الكفار و المنافقين

(لَّهُم مَّغْفِرَةٞ)من اللّه تمحى بها سيئاتهم و تضمحل بها زلاتهم

(و)لهم(وَرِزْقٞ كَرِيمٞ)أى:خير كثير من الرب الكريم فى جنات النعيم٧٤

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ)هؤلاء المهاجرين والأنصار

(وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ)فى سبيل الله

و ربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم و تطمئن به قلوبهم

و لذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين و الأنصار ممن اتبعهم بإحسان فآمن و هاجر و جاهد في سبيل اللّه.

(فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ)-أيها المؤمنون-لهم ما لكم و عليهم ما عليكم .

فهذه الموالاة الإيمانية –و قد كانت فى أول الإسلام–لها وقع كبير و شأن عظيم حتى إن النبى ﷺآخى بين المهاجرين و الأنصار أخوة خاصة غير الأخوة الإيمانية العامة و حتى كانوا يتوارثون بها فأنزل اللّه:–

(وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ)القرابة(بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ)فى التوارث(فِي كِتَٰبِ)حكم و شرع(ٱللَّهِۗ)من عامة المسلمين.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:الطيالسى 2798 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ:-

آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺبَيْنَ أَصْحَابِهِ وَوَرَّثَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى نَزَلَتْ: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ} [الأحزاب: 6] فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَ تَوَارَثُوا بِالنَّسَبِ "

*فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات و أصحاب الفروض فإن لم يكونوا فأقرب قراباته من ذوي الأرحام

كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة

(إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ)

يعلم ما يصلح عباده مِن توريث بعضهم من بعض فى القرابة و النسب دون التوارث بالحِلْف و غير ذلك مما كان فى أول الإسلام.

و منه ما يعلمه من أحوالكم التى يجرى من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها ٧٥

9-سورة التوبة(براءة)-مدنية-بسم الله الرحمن الرحيم

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

*البخارى4654 عن البَرَاء رضي الله عنه يَقُولُ:-" آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ:{يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ} [النساء: 176] وَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ "

*وَ إِنَّمَا لَا يُبَسْمَلُ فِي أَوَّلِهَا لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَ الِاقْتِدَاءُ فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه وَ أَرْضَاهُ

*وَ أَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَ هَمَّ بِالْحَجِّ ثُمَّ ذُكِرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَ أَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً فَكَرِهَ مُخَالَطَتَهُمْ فَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةَ لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَ يُعْلِمَ الْمُشْرِكِينَ أَلَّا يَحُجُّوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِبَرَاءَةَ فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكَوْنِهِ عَصَبَةً لَهُ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

هذه (بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ) و من (وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)إلى جميع المشركين المعاهدين 1 أن:-

البراءة من عهود المشركين و احكام معاملتهم 6-1

(فَسِيحُوا۟)فسيروا(فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)

*لهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين و بعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم و لا ميثاق.

*و هذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر أو مقدر بأربعة أشهر فأقل أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر فإن الله يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة و لم يبدأ بنقض العهد.

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ)

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم و إن كانوا آمنين فإنهم لن يعجزوا اللّه و لن يفوتوه

و أنه من استمر منهم على شركه فإنه لا بد أن يخزيه فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام

إلا من عاند وأصر و لم يبال بوعيد اللّه له 2

(وَأَذَٰنٞ)و إعلام(مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ)و إنذار

(إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ)يوم النحر (أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ)بريء منهم كذلك

*الواو حرف عطف

رسول:-مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة

الهاء:-ضمير متصل مبنى على الضم فى محل جر مضاف اليه.

الخبر:-محذوف تقديره "برئ"

*أن يؤذن بأن اللّه برىء و رسوله من المشركين فليس لهم عنده عهد و ميثاق فأينما وُجِدُوا قُتِلُوا

و قيل لهم:—لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا و كان ذلك سنة تسع من الهجرة.

و حج بالناس أبو بكر الصديق ﵁ و أذن ببراءة—يوم النحر—ابن عم رسول اللّه ﷺعلى بن أبى طالب ﵁

*هذا ما وعد اللّه به المؤمنين من نصر دينه و إعلاء كلمته و خذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا

الرسول و من معه من مكة من بيت اللّه الحرام و أجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر اللّه رسوله و المؤمنين حتى افتتح مكة و أذل المشركين و صار للمؤمنين الحكم و الغلبة على تلك الديار.

فأمر النبى مؤذنه أن يؤذن و هو يوم النحر وقت اجتماع الناس مسلمهم و كافرهم من جميع جزيرة العرب

*ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة و رهبهم من الاستمرار على الشرك فقال:—

(فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ)أعرضتم عن قبول الحق و أبيتم الدخول فى دين الله

(فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ)تُفْلِتوا من عذاب الله

*بل أنتم فى قبضته قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين.

(وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

مؤلم مفظع فى الدنيا بالقتل و الأسر و الجلاء و فى الآخرة بالنار و بئس القرار 3

*البخارى 4655 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁قَالَ:-

بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَ لاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:-

ثُمَّ «أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَ أَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:-

فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِي أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ«وَ أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَ لاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»

*أحمد 13214 -عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺبَعَثَ بِبَرَاءَةٌ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَلَمَّا بَلَغَ ذَا الْحُلَيْفَةِ قَالَ عَفَّانُ:-
لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي"فَبَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيٍّ
*أحمد 594 -عَنْ زَيْدِ بْنِ أُثَيْعٍ-رَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ-سَأَلْنَا عَلِيًّا:- بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ؟
يَعْنِي يَوْمَ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺمَعَ أَبِي بَكْرٍ فِي الْحَجَّةِ قَالَ:-بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ:-
1-لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ
2-وَ لا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ
3-وَ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺعَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ
4-وَ لا يَحُجُّ الْمُشْرِكُونَ وَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا "﴿٣﴾

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾
و يُستثنى من الحكم السابق المشركون الذين دخلوا معكم فى عهد محدد بمدة و استمروا على عهدهم

﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾و لم يخونوا العهد–و لم يجر منهم ما يوجب النقض فلا نقصوكم شيئا

﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا ﴾و لم يعاونوا عليكم أحدا من الأعداء

﴿فَأَتِمُّوٓاْ ﴾فأكملوا﴿إِلَيۡهِمۡ﴾لهم﴿عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ ﴾نهايته المحدودة

*فهؤلاء أتموا لهم عهدهم إلى مدتهم قَلَّتْ أو كثرت

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾الْمُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة و إنما يأمر بالوفاء.

﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾الذين أدوا ما أمروا به و اتقوا الشرك و الخيانة و غير ذلك من المعاصى
*هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ
فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوهِدَ عَلَيْهَا وَ قَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ:-
وَ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ وَ ذَلِكَ بِشَرْطِ أَلَّا يَنْقُضَ الْمُعَاهَدُ عَهْدَهُ وَ لَمْ يُظَاهِرْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا أَيْ:-
يُمَالِئْ عَلَيْهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ فَهَذَا الَّذِى يُوَفَّى لَهُ بِذِمَّتِهِ وَ عَهْدِهِ إِلَى مُدَّتِهِ وَ لِهَذَا حَرَّضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ فَقَالَ:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾﴿٤﴾

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾أى: التى حرم فيها قتال المشركين المعاهدين و هى أشهر التسيير الأربعة
و تمام المدة لمن له مدة أكثر منها فقد برئت منهم الذمة.

﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾فى أى مكان و زمان
*وَ الْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ بِقَوْلِهِ:-
{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}[الْبَقَرَة: 191]

(وَخُذُوهُمۡ)أسرى وَ أْسِرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَ إِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا.

(وَٱحۡصُرُوهُمۡ)ضيقوا عليهم فلا تدعوهم يتوسعون فى بلاد اللّه و أرضه التى جعلها الله معبدا لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلا لسكناها و لا يستحقون منها شبرا لأن الأرض أرض اللّه و هم أعداؤه المنابذون له و لرسله المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه و يأبى اللّه إلا أن يتم نوره و لو كره الكافرون.

(وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ)ثنية و موضع يمرون عليه و رابطوا فى جهادهم و ابذلوا غاية مجهودكم فى ذلك و لا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

لَا تَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ وِجْدَانِكُمْ لَهُمْ بَلِ:-

1-اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِى مَعَاقِلِهِمْ وَ حُصُونِهِمْ

2-وَ الرَّصْدِ فِى طُرُقِهِمْ وَ مَسَالِكِهِمْ حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ وَ تَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوِ الْإِسْلَامِ؛

*البخارى25 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَ يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَ حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ

و لهذا قال:(فَإِن تَابُواْ)من شركهم(وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)أدوها بحقوقها

(وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ)لمستحقيها

(فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ)أى: اتركوهم و ليكونوا مثلكم لهم ما لكم و عليهم ما عليكم.

(إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)يغفر الشرك فما دونه للتائبين و يرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

و فى هذه الآية دليل على أن:–

من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة فإنه يقاتل حتى يؤديهما كما استدل بذلك أبو بكر الصديق ﵁

*وَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِىَ آيَةُ السَّيْفِ الَّتِى قَالَ فِيهَا الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ:-

إِنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ كُلَّ عَهْدٍ وَ كُلَّ مُدَّةٍ۝٥

*لما كان ما تقدم من قوله(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)أمرا عاما فى جميع الأحوال و فى كل الأشخاص منهم ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز بل وجب ذلك فقال:–

(وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ)استأمنك

أى: طلب منك أن تجيره و تمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام اللّه و ينظر حالة الإسلام.

(فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ)ثم إن أسلم فذاك

(ثُمَّ)و إلا فــ(أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ) أى:–المحل الذى يأمن فيه

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ)و السبب فى ذلك أن الكفار(قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ)

فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام فلذلك أمر اللّه رسوله و أمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام اللّه.

*الْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي أَدَاءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ صُلْحٍ أَوْ مُهَادَنَةٍ أَوْ حَمْلِ جِزْيَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ فَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا أُعْطِيَ أَمَانًا مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَ وَطَنِهِ.

*و في هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة و الجماعة:-

القائلين بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق لأنه تعالى هو المتكلم به و أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها و بطلان مذهب المعتزلة و من أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

و كم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول ليس هذا محل ذكرها﴿٦﴾

كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ اللّه و رسوله من المشركين فقال:-

صفات المشركين و تعاملهم مع المؤمنين 7-15

(كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ)أمان

(عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ)هل قاموا بواجب الإيمان أم تركوا رسول اللّه و المؤمنين من أذيتهم؟

أما حاربوا الحق و نصروا الباطل؟ أما سعوا فى الأرض فسادا؟

فيحق عليهم أن يتبرأ اللّه منهم و أن لا يكون لهم عهد عنده و لا عند رسوله.

(إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ)من المشركين

(عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ)يوم الحديبية كقوله (هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ) الفتح: ٢٥

فإن لهم فى العهد و خصوصا فى هذا المكان الفاضل حرمة أوجب أن يراعوا فيها.

(فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ)

*وَ قَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺذَلِكَ وَ الْمُسْلِمُونَ اسْتَمَرَّ الْعَقْدُ وَ الْهُدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِى الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ الْعَهْدَ وَ مَالَئُوا حُلَفَاءَهُمْ بَنِى بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ أَحْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَ مَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَ الْمِنَّةُ 7

و لهـذا قال:- (كَيۡفَ)يكون للمشركين عند اللّه عهد و ميثاق

(و)الحال أنهم (وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ)بالقدرة و السلطة

(لَا يَرۡقُبُواْ)لا يرحموا(فِيكُمۡ إِلّٗا)قرابة(وَلَا ذِمَّةٗۚ)عهد

و لا يخافون اللّه فيكم بل يسومونكم سوء العذاب فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

و لا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم

فإنهم فى وقت الخوف منكم(يُرۡضُونَكُم)لترضوا عنهم(بِأَفۡوَٰهِهِمۡ)يقولون لكم كلامًا بألسنتهم

فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به

(و)ولكن (وَتَأۡبَىٰ)ذلك(قُلُوبُهُمۡ)

الميل و المحبة لكم بل هم الأعداء حقا المبغضون لكم صدقا

(وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ)لا ديانة لهم و لا مروءة.متمردون على الإسلام ناقضون للعهد 8

(ٱشۡتَرَوۡاْ)استبدلوا(بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا)عرض الدنيا التافه

أى:اختاروا الحظ العاجل الخسيس فى الدنيا على الإيمان باللّه و رسوله و الانقياد لآيات اللّه.

(فَصَدُّواْ)بأنفسهم و صدوا غيرهم

(عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ)قبُح(مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)و ساء صنيعهم لأجل عداوتهم للإيمان ٩

(لَا يَرۡقُبُونَ)فلا يقيمون وزنًا(فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا)قرابة(وَلَا ذِمَّةٗۚ)عهد

أي لأجل عداوتهم للإيمان و أهله فالوصف الذى جعلهم يعادونكم لأجله و يبغضونكم هـو:-

الإيمان فذبوا عن دينكم و انصروه و اتخذوا من عاداه لكم عدوا

و من نصره لكم وليا و اجعلوا الحكم يدور معه وجودا و عدما لا تجعلوا الولاية و العداوة طبيعية تميلون بهما

حيثما مال الهوى و تتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء

و لهذا(فَإِن تَابُواْ)عن شركهم و رجعوا إلى الإيمان

(وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ)

و تناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين لتكونوا عباد اللّه المخلصين و بهذا يكون العبد عبدا حقيقة

*لما بين من أحكامه العظيمة ما بين و وضح منها ما وضح أحكاما و حِكَمًا و حُكْمًا و حكمة قال:-

(وَنُفَصِّلُ)نوضح و نميز(ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)

فإليهم سياق الكلام و بهم تعرف الآيات و الأحكام و بهم عرف دين الإسلام و شرائع الدين

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون و يعملون بما يعلمون برحمتك و جودك

و كرمك و إحسانك يا رب العالمين﴿١١﴾

يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء:-

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ ﴾نقضوا و حلوا﴿أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم

﴿وَطَعَنُواْ ﴾عابوا و سخروا﴿فِي ﴾من﴿دِينِكُمۡ ﴾

و يدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين أو إلى القرآن

*وَ مِنْ هَاهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ ﷺأَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِتَنَقُّصٍ

وَ لِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ﴾قادة

﴿ٱلۡكُفۡرِ ﴾و الرؤساء الطاعنين فى دين الرحمن الناصرين لدين الشيطان و خصهم بالذكر لعظم جنايتهم

و لأن غيرهم تبع لهم و ليدل على أن من طعن فى الدين و تصدى للرد عليه فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ ﴾عهود و لا ميثاق

﴿لَهُمۡ ﴾يلازمون على الوفاء بها بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ ﴾فى قتالكم إياهم ﴿يَنتَهُونَ﴾عن الطعن فى دينكم و ربما دخلوا فيه﴿١٢﴾

*ثم حث على قتالهم و هيج المؤمنين بذكر الأوصاف التى صدرت من هؤلاء الأعداء و التى هم موصوفون بها المقتضية لقتالهم فقال:-

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا﴾لا تترددوا فى قتال هؤلاء القوم الذين﴿نَّكَثُوٓاْ ﴾نقضوا﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾عهودهم

﴿وَهَمُّواْ﴾عملوا على﴿بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾من (مكة)

الذى يجب احترامه و توقيره و تعظيمه؟

و هم هموا أن يجلوه و يخرجوه من وطنه و سعوا فى ذلك ما أمكنهم

*كقوله (وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ) الأنفال: ٣٠

﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ ﴾بدؤوا بإيذائكم

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾أول الأمر حيث نقضوا العهد و أعانوا عليكم

و ذلك حيث عاونت قريش–و هم معاهدون–بنى بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول اللّه ﷺو قاتلوا معهم

كما هو مذكور مبسوط فى السيرة.

*الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ حِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ عِيرِهِمْ فَلَمَّا نَجَتْ وَ عَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وُجُوهِهِمْ طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَ تَكَبُّرًا كَمَا تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ.

*وَ قِيلَ:الْمُرَادُ نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ وَ قِتَالُهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ لِخُزَاعَةَ أَحْلَافِ رسول الله ﷺ حتى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَامَ الْفَتْحِ وَ كَانَ مَا كَانَ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ.

(أَتَخْشَوْنَهُمْ)فى ترك قتالهم(فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

*لَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطْوَتِى وَ عُقُوبَتِى فَبِيَدِى الْأَمْرُ وَ مَا شِئْتُ كَانَ و ما لم أشأ لم يكن.

فإنه أمركم بقتالهم و أكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر اللّه و لا تخشوهم فتتركوا أمر اللّه ﴿١٣﴾

ثم أمر بقتالهم و ذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد و كل هذا حث و إنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال:–

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) بالقتل(وَيُخْزِهِمْ)يذلهم بالهزيمة و الخزى

*إذا نصركم اللّه عليهم و هم الأعداء الذين يطلب خزيهم و يحرص عليه

(وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ)هذا وعد من اللّه و بشارة قد أنجزها.

(وَيَشْفِ)بهزيمتهم(صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)التى طالما لحق بها الحزن و الغم من كيد هؤلاء المشركين14

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ)

فإن في قلوبهم من الْحَنَقِ و الغيظ عليهم ما يكون قتالهم و قتلهم شفاء لما فى قلوب المؤمنين من الغم و الهم إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين للّه و لرسوله ساعين في إطفاء نور اللّه و زوالا للغيظ الذى فى قلوبهم و هذا يدل على محبة اللّه لعباده المؤمنين و اعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل–من جملة المقاصد الشرعية– شفاء ما فى صدورهم و ذهاب غيظهم ثم قال:–

(وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ)من هؤلاء المحاربين بأن يوفقهم للدخول في الإسلام و يزينه فى قلوبهم و يُكَرِّهَ إليهم الكفر و الفسوق و العصيان

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)و يعلم من يصلح للإيمان فيهديه و من لا يصلح فيبقيه فى غيه و طغيانه

(حَكِيمٌ)يضع الأشياء مواضعها

*فِي أَفْعَالِهِ وَ أَقْوَالِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَ الشَّرْعِيَّةِ فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَ هُوَ الْعَادِلُ الْحَاكِمُ الَّذِى لَا يَجُورُ أَبَدًا وَ لَا يُضِيعُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ بل يجازى عليه فى الدنيا و الاخرة 15

*يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد:–

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا)من دون ابتلاء و امتحان و أمر بما يبين به الصادق و الكاذب.

(وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ)

الحض على الجهاد و عمارة المساجد 16-19

أى:علما يظهر مما في القوة إلى الخارج ليترتب عليه الثواب و العقاب فيعلم الذين يجاهدون فى سبيله: لإعلاء كلمته

(وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ) بِطَانَةً وَ دَخِيلَةً
بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَ الْبَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ فَاكْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
وَ مَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِى

*كقوله (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ) العنكبوت

أي: وليا من الكافرين بل يتخذون اللّه و رسوله و المؤمنين أولياء.

فشرع اللّه الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم:–و هو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين اللّه من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان و هم يتخذون الولائج و الأولياء من دون اللّه و لا رسوله و لا المؤمنين.

(وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)أى: يعلم ما يصير منكم و يصدر فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه و يجازيكم على أعمالكم خيرها و شرها.

كقوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ) آل عمران: ١٤٢

*وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ لِعِبَادِهِ:-بَيَّنَ أَنَّ لَهُ فِيهِ حِكْمَةً وَ هُوَ اخْتِبَارُ عَبِيدِهِ:-
مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ وَ هُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَ مَا يَكُونُ وَ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؟
فَيَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ وَ مَعَ كَوْنِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَ لَا رَادَّ لِمَا قَدَّرَهُ وَ أَمْضَاهُ ﴿١٦﴾

(مَا كَانَ)ما ينبغي و لا يليق(لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ)بالعبادة و الصلاة و غيرها من أنواع الطاعات و الحال أنهم(شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ)

بشهادة حالهم و فطرهم و علم كثير منهم أنهم على الكفر و الباطل

فإذا كانوا (شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ)و عدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد اللّه و الأصل منهم مفقود و الأعمال منهم باطلة؟!!.

و لهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ ﴾بطلت و ضلت﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾بشركهم﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

ثم ذكر من هم عمار مساجد اللّه فقال:–

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

الواجبة و المستحبة بالقيام بالظاهر منها و الباطن

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾لأهلها الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بِرِّ الْخَلَائِقِ

﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾أي قَصَر خشيته على ربه فكف عما حرم اللّه و لم يقصر بحقوق اللّه الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع و بالقيام بالأعمال الصالحة التى أُمُّها الصلاة و الزكاة و بخشية اللّه التى هى أصل كل خير فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة و أهلها الذين هم أهلها.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ:-

{عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:79]و « عسى » من اللّه واجبة.

و أما من لم يؤمن باللّه و لا باليوم الآخرو لا عنده خشية للّه فهذا ليس من عمار مساجد اللّه

و لا من أهلها الذين هم أهلها و إن زعم ذلك و ادعاه﴿١٨﴾

*لما اختلف بعض المسلمين أو بعض المسلمين و بعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بـــ:–

البناء و الصلاة و العبادة فيه و سقاية الحاج على:–

الإيمان باللّه و الجهاد فى سبيله أخبر اللّه تعالى بالتفاوت بينهما فقال:–

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ ﴾سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد

﴿وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ ﴾كإيمان﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؟

فالجهاد و الإيمان باللّه أفضل من سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة

لأن الإيمان:–أصل الدين و به تُقْبل الأعمال و تزكو الخصال.

و أما الجهاد:–

فى سبيل اللّه فهو ذروة سنام الدين الذى به يحفظ الدين الإسلامى و يتسع و ينصر الحق و يخذل الباطل.

و أما عمارة المسجد الحرام و سقاية الحاج:–

فهى و إن كانت أعمالا صالحة فهى متوقفة على الإيمان و ليس فيها من المصالح ما في الإيمان و الجهاد

فلذلك قال: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أى:الذين وصفهم الظلم الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير بل لا يليق بهم إلا الشر

*الصحيح المسند من أسباب النزول: مسلم (1879)عن النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺقَالَ:-

كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ:-مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ
وَ قَالَ آخَرُ:-مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
وَ قَالَ آخَرُ:-الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ
وَ قَالَ:لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَ لَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: 19] الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا ﴿١٩﴾

ثم صرح بالفضل فقال:–

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ)بالنفقة فى الجهاد و تجهيز الغزاة

(وَأَنفُسِهِمْ)بالخروج بالنفس

فضل و جزاء المجاهدين 20-22

(أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

أى: لا يفوز بالمطلوب و لا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم و تخلق بأخلاقهم ﴿٢٠﴾

يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

(يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم)جودا منه و كرما و برا بهم و اعتناء و محبة لهم

(بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ)أزال بها عنهم الشرور و أوصل إليهم بها كل خير.

(وَرِضۡوَٰنٖ)منه تعالى عليهم الذي هو أكبر نعيم الجنة و أجله فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا.

(وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ)

من كل ما اشتهته الأنفس و تلذ الأعين مما لا يعلم وصفه و مقداره إلا اللّه تعالى الذى منه أن اللّه أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض و لو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

(خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ)لا ينتقلون عنها و لا يبغون عنها حِوَلا

(إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ)لا تستغرب كثرته على فضل اللّه و لا يتعجب من عظمه و حسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

تحريم تولى الكفار 23-24

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)اعملوا بمقتضى الإيمان بأن توالوا من قام به و تعادوا من لم يقم به.

و (لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ)الذين هم أقرب الناس إليكم و غيرهم من باب أولى و أحرى

فلا تتخذوهم(أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ)أى:اختاروا على وجه الرضا و المحبة(ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ)

(وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

لأنهم تجرؤوا على معاصى اللّه و اتخذوا أعداء اللّه أولياء و أصل الولاية: –المحبة و النصرة

و ذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة اللّه و محبتهم على محبة اللّه و رسوله(٢٣)

و لهذا ذكر السبب الموجب لذلك و هو أن محبة اللّه و رسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء و جعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال:–

(قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ)و مثلهم الأمهات(وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ)فى النسب و العشرة

(وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)قراباتكم عموما

(وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا)اكتسبتموها و تعبتم فى تحصيلها

خصها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها و صاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب و لا كَدّ.

(وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ)تخافون(كَسَادَهَا)رخصها و نقصها

و هذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان و الأوانى و الأسلحة و الأمتعة و الحبوب و الحروث و الأنعام و غير ذلك.

(وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ)من حسنها و زخرفتها و موافقتها لأهوائكم فإن كانت هذه الأشياء

(أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ)فأنتم فسقة ظلمة.

(فَتَرَبَّصُواْ)انتظروا ما يحل بكم من العقاب

(حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ)الذى لا مرد له.

(وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)الخارجين عن طاعة اللّه المقدمين على محبة اللّه شيئا من المذكورات.

و هذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة اللّه و رسوله و على تقديمها على محبة كل شيء و على الوعيد الشديد و المقت الأكيد على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه و رسوله و جهاد فى سبيله.

و علامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران:–

أحدهما يحبه اللّه و رسوله و ليس لنفسه فيه هوى

و الآخر تحبه نفسه و تشتهيه و لكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا للّه و رسولهأو ينقصه

فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه اللّه ⇦دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

*البخارى 6632 - عن زُهْرَةَ بْنُ مَعْبَدٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ:-
كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺوَ هُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِى فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: -
«لاَ (لا يكمل إيمانك)وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِى فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ:-«الآنَ(كمل إيمانك)يَا عُمَرُ»
*البخارى14-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺقَالَ:-
«فَوَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ (أقسم بالله تعالى الذي حياتي بيده)لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ(مقدما لديه و عنوان ذلك الطاعة و الاقتداء وترك المخالفة) مِنْ وَالِدِه وَ وَلَدِهِ»
*مسلم(1775)عن كَثِيرُ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ:-قَالَ عَبَّاسٌﷺ:-
شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِﷺيَوْمَ حُنَيْنٍ(واد بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وهو مصروف كما جاء به القرآن العزيز)
فَلَزِمْتُ أَنَا وَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ(أبو سفيان هذا هو ابن عم رسول الله ﷺقال جماعة من العلماء اسمه هو كنيته وقال آخرون اسمه المغيرة)بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَ رَسُولُ اللهِﷺعَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ(كذا قال في هذه الرواية ورواية أخرى بعدها إنها بغلة بيضاء وقال في آخر الباب على بغلته الشهباء وهي واحدة قال العلماء لا يعرف لهﷺبغلة سواها وهي التي يقال لها دلدل)
(أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِىُّ) فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَ الْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ
فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِﷺيَرْكُضُ بَغْلَتَهُ(يضربها برجله الشريفة على كبدها لتسرع)قِبَلَ الْكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ:-
وَ أَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺأَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ وَ أَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَىْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ»فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَ كَانَ رَجُلًا صَيِّتًا
فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِى: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟(هى الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان ومعناه ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية(صيتا) أي قوي الصوت ذكر الحازمي في المؤتلف أن العباس رضي الله تعالى عنه كان يقف على سلع فينادي غلمانه في آخر الليل وهم في الغابة فيسمعهم قال وبين سلع وبين الغابة ثمانية أميال)قَالَ:-فَوَ اللهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِى عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا(أى عودهم لمكانتهم وإقبالهم إليه ﷺعطفة البقر على أولادها أي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمات حين حنت على الأولاد قال النووي قال العلماء في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدا وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم وإنما فتحه عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام ولا ختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه وممن يتربص بالمسلمين الدوائر وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخفاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولوا فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله سكينته على المؤمنين كما ذكر الله تعالى في القرآن)فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ قَالَ:فَاقْتَتَلُوا وَ الْكُفَّارَ (مع الكفار)وَ الدَّعْوَةُ(هى بفتح الدال يعنى الاستغاثة و المنادة إليهم)فِى الْأَنْصَارِيَقُولُونَ:-يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالَ:-
ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا: يَا بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ
فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَ هُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺهَذَا حِينَ حَمِىَ الْوَطِيسُ»(قال الأكثرون هو شبه تنور يسجر فيه ويضرب مثلا لشدة الحرب التى يشبه حرها حره وقد قال آخرون الوطيس هو التنور نفسه وقال الأصمعى هى حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد أن يطأ عليها فيقال الآن حمى الوطيس وقيل هو الضرب فى الحرب وقيل هو الحرب الذي يطيس الناس أى يدقهم قالوا وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذى لم يسمع من أحد قبل النبىﷺ)
قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺحَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: «انْهَزَمُوا وَ رَبِّ مُحَمَّدٍ» قَالَ:-
فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى قَالَ:-
فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا(أي ما زلت أرى قوتهم ضعيفة)وَ أَمْرَهُمْ مُدْبِرًا
*مسلم 78-(1776) عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ:-
يَا أَبَا عُمَارَةَ أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لاَ وَ اللهِ مَا وَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ

وَ لَكِنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أَصْحَابِهِ(جمع شاب كواحد ووحدان)وَ أَخِفَّاؤُهُمْ(جمع خفيف كطبيب وأطباء وهم المسارعون المستعجلون)حُسَّرًا
(جمع حاسر كساجد وسجد أي بغير دروع وقد فسره بقوله ليس عليهم سلاح والحاسر من لا درع له ولا مغفر)
لَيْسَ عَلَيْهِمْ سِلاَحٌ-أَوْ كَثِيرُ سِلاَحٍ-فَلَقُوا قَوْمًا رُمَاةً لاَ يَكَادُ يَسْقُطُ لَهُمْ سَهْمٌ(يعنى أنهم رماة مهرة تصل سهامهم إلى أغراضهم كما)
جَمْعَ هَوَازِنَ وَ بَنِى نَصْرٍ فَرَشَقُوهُمْ رَشْقًا(هو بفتح الراء وهو مصدر وأما الرشق بالكر فهو اسم للسهام التى ترميها الجماعة دفعة واحدة وضبط القاضي الرواية هنا بالكسر وضبط غيره بالفتح وهو الأجود وإن كانا جيدين وأما قوله فى الرواية التى بعد هذه فرموه برشق من نبل فهو بالكسر لا غير قال أهل اللغة رشقه يرشقه وأرشقه ثلاثى ورباعى والثلاثى أشهر وأفصح)مَا يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ فَأَقْبَلُوا هُنَاكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺوَ رَسُولُ اللهِ ﷺعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُودُ بِهِ فَنَزَلَ فَاسْتَنْصَرَ(طلب من الله تعالى النصرة ودعا بقوله اللهم نزل نصرك)وَ قَالَ:-«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ(أى أنا النبى حقا فلا أفر ولا أزول)أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ» ثُمَّ صَفَّهُمْ

*مسلم79 - (1776) عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْبَرَاءِ فَقَالَ:-أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺمَا وَلَّى وَ لَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ وَ حُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ وَ هُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ(يعنى كأنها قطعة من جراد قال في النهاية الرجل بالكسر الجراد الكثير)فَانْكَشَفُوا(انهزموا وفارقوا مواضعهم وكشفوها)فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ فَنَزَلَ وَ دَعَا وَ اسْتَنْصَرَ وَ هُوَ يَقُولُ:-«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ»
قَالَ الْبَرَاءُ:-«كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ(احمرار البأس كناية عن شدة الحرب واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر)نَتَّقِى بِهِ وَ إِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِى يُحَاذِى بِهِ يَعْنِى النَّبِيَّ ﷺ»

*يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء و مواضع الحروب و الهيجاء حتى في يوم « حنين » الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة و رأوا من التخاذل و الفرار ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها و سعتها.

و ذلك أن النبى ﷺلما فتح مكة سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه فسار إليهم ﷺفى أصحابه الذين فتحوا مكة و ممن أسلم من الطلقاء أهل مكة فكانوا اثنى عشر ألفا و المشركون أربعة آلاف فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم و قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم و هوازن حملوا على المسلمين حملة واحدة فانهزموا لا يلوى أحد على أحد و لم يبق مع رسول اللّه ﷺ إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه و جعلوا يقاتلون المشركين و جعل النبى ﷺ يركض بغلته نحو المشركين و يقول:-« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

و لما رأى من المسلمين ما رأى أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادى فى الأنصار و بقية المسلمين و كان رفيع الصوت فناداهم:-يا أصحاب السمرة يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد فاجتلدوا مع المشركين فهزم اللّه المشركين هزيمة شنيعة و استولوا على معسكرهم و نسائهم و أموالهم(٢٤)

و ذلك قوله تعالى(لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ)

فضل الله على المؤمنين بالنصر يوم حنين 25-27

اسم للمكان الذى كانت فيه الوقعة بين مكة و الطائف.

(إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا)لم تفدكم شيئا قليلا و لا كثيرا

(وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ)بما أصابكم من الهم و الغم حين انهزمتم

(بِمَا رَحُبَتۡ)على سعتها(ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ)منهزمين﴿٢٥﴾

(ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ)هى :–ما يجعله اللّه فى القلوب وقت القلاقل و الزلازل و المفظعات مما يثبتها و يسكنها و يجعلها مطمئنة و هى من نعم اللّه العظيمة على العباد

(عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)

*مسلم 523 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:-فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ:-
1-أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ
(وفى رواية الأخرى بعثت بجوامع الكلم قال الهروى يعنى به القرآن جمع الله تعالى فى الألفاظ اليسيرة منه المعانى الكثيرة وكلامه ﷺكان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعانى)
2-وَ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ
3-وَ أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ
4-وَ جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَ مَسْجِدًا
5-وَ أُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَ خُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ "

(وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا)و هم الملائكة أنزلهم اللّه معونة للمسلمين يوم حنين يثبتونهم و يبشرونهم بالنصر.

(وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ)بالهزيمة و القتل و استيلاء المسلمين على نسائهم و أولادهم و أموالهم.

(وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ)يعذبهم اللّه فى الدنيا ثم يردهم فى الآخرة إلى عذاب غليظ﴿٢٦﴾

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

(ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ)

فتاب اللّه على كثير ممن كانت الوقعة عليهم و أتوا إلى النبى ﷺ مسلمين تائبين فرد عليهم نساءهم و أولادهم.

(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)ذو مغفرة واسعة و رحمة عامة يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين

و يرحمهم بتوفيقهم للتوبة و الطاعة و الصفح عن جرائمهم و قبول توباتهم فلا ييأسَنَّ أحد من مغفرته و رحمته

و لو فعل من الذنوب و الإجرام ما فعل

*قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ وَ أَسْلَمُوا وَ قَدِمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ وَ لَحِقُوهُ وَ قَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الجِعِرَّانة وَ ذَلِكَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيَّرهم بَيْنَ سَبْيِهِمْ وَ بَيْنَ أَمْوَالِهِمْ فَاخْتَارُوا سَبْيَهُمْ وَ كَانُوا سِتَّةَ آلَافِ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَ امْرَأَةٍ فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَ قَسَّمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْغَانِمِينَ وَ نَفَلَ أُنَاسًا مِنَ الطُّلَقَاءِ لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَعْطَاهُمْ مِائَةً مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أُعْطِيَ مِائَةً مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِى( ) وَ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ﴿٢٧﴾

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ)باللّه الذين عبدوا معه غيره

تحريم دخول المشركين للمسجد الحرام و قتالهم 28-33

تاريخ دمشق لابن عساكر 7179 - مالك بن عوف بن سعيد ويقال سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن أبو علي النصرى كان أميرا على المشركين لما قاتلوا النبى ﷺ فى غزوة حنين ثم أسلم وكان من المؤلفة وأعطاه مائة من الإبل وعقد له لواء وشهد فتح دمشق

(نَجَسٌ)خبثاء فى عقائدهم و أعمالهم و أى نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع و لا تضر و لا تغنى عنه شيئا؟.

و أعمالهم ما بين محاربة للّهو صد عن سبيل اللّه و نصر للباطل و رد للحق و عمل بالفساد فى الأرض لا فى الصلاح فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت و أطهرها عنهم.

(فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ)

و هو سنة تسع من الهجرة حين حج بالناس أبو بكر الصديق و بعث النبى ﷺابن عمه عليا أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ (براءة)فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك و لا يطوف بالبيت عريان.

و ليس المراد هنا نجاسة البدن:–

فإن الكافر كغيره طاهر البدن بدليل أن اللّه تعالى أباح وطء الكتابية و مباشرتها و لم يأمر بغسل ما أصاب منها.

و المسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار و لم يُنْقَل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهُم من النجاسات

و إنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية بالشرك فكما أن التوحيد و الإيمان طهارة فالشرك نجاسة.

(وَإِنۡ خِفۡتُمۡ)أيها المسلمون(عَيۡلَةً)فقرا و حاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام

بأن تنقطع الأسباب التى بينكم و بينهم من الأمور الدنيوية

(فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ)

فليس الرزق مقصورا على باب واحد و محل واحد بل لا ينغلق باب إلا و فتح غيره أبواب كثيرة

فإن فضل اللّه واسع و جوده عظيم خصوصا لمن ترك شيئا لوجهه الكريم فإن اللّه أكرم الأكرمين.

و قد أنجز اللّه وعده فإن اللّه قد أغنى المسلمين من فضله و بسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء و الملوك.

*إِنَّ هَذَا عِوَضُ مَا تَخَوَّفْتُمْ مِنْ قَطْعِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَطَعَ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشِّرْكِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أعناق أهل الكتاب من الجزية.

(إِن شَآءَۚ)تعليق للإغناء بالمشيئة لأن الغنى فى الدنيا ليس من لوازم الإيمان و لا يدل على محبة اللّه فلهذا علقه اللّه بالمشيئة

فإن اللّه يعطى الدنيا من يحب و من لا يحب و لا يعطى الإيمان و الدين إلا من يحب.

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ)بما يصلحكم.علمه واسع يعلم من يليق به الغنى ممن لا يليق

(حَكِيمٌ)و يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها.

*فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَ يَنْهَى عَنْهُ لِأَنَّهُ:-الْكَامِلُ فِي أَفْعَالِهِ وَ أَقْوَالِهِ الْعَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَ أَمْرِهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى

*و تدل الآية الكريمة و هى قوله(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

أن المشركين بعد ما كانوا هم الملوك و الرؤساء بالبيت ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول اللّه و المؤمنين مع إقامتهم في البيت و مكة المكرمة ثم نزلت هذه الآية.

*و لما مات النبى ﷺأمر أن يجلوا من الحجاز فلا يبقى فيها دينان و كل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام فيدخل فى قوله(فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

*و قال عبد الرازق فى تفسيره:-عن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:-

{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ

*وَ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى نَجَاسَةِ الْمُشْرِكِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِ وَ لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:-الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ وَ أَمَّا نَجَاسَةُ بَدَنِهِ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَجِسِ الْبَدَنِ وَ الذَّاتِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ طَعَامَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ ذَهَبَ بَعْضُ الظَّاهِرِيَّةِ إِلَى نَجَاسَةِ أَبْدَانِهِمْ ﴿٢٨﴾

(قَٰتِلُواْ)هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود و النصارى من(ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ) إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم و أعمالهم.

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ)فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات

(وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ)الصحيح

(مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ)و إن زعموا أنهم على دين فإنه دين غير الحق لأنه إما بين دين مبدل و هو الذي لم يشرعه اللّه أصلا و إما دين منسوخ قد شرعه اللّه ثم غيره بشريعة محمدﷺالتمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء و حث على ذلك لأنهم يدعون إلى ما هم عليه و يحصل الضرر الكثير منهم للناس بسبب أنهم أهل كتاب.

و غيَّى ذلك القتال(حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ)

أى:المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم و إقامتهم آمنين على أنفسهم و أموالهم بين أظهر المسلمين يؤخذ منهم كل عام كلٌّ على حسب حاله من غنى و فقير و متوسط كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ و غيره من أمراء المؤمنين.

حتى يبذلوها(عَن يَدٖ)بأيديهم فلا يرسلون بها خادما و لا غيره بل لا تقبل إلا من أيديهم

(وَهُمۡ صَٰغِرُونَ)خاضعين أذلاء

فإذا كانوا بهذه الحال و سألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية و هم تحت أحكام المسلمين و قهرهم و حال الأمن من شرهم و فتنتهم و استسلموا للشروط التى أجراها عليهم المسلمون مما ينفى عزهم

و تكبرهم و يوجب ذلهم و صغارهم وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

و إلا بأن لم يفوا و لم يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون لم يجز إقرارهم بالجزية بل يقاتلون حتى يسلموا.

و استدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون:-

لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب لأن اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

و أما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا و ألحق بأهل الكتاب فى أخذ الجزية و إقرارهم فى ديار المسلمين المجوس فإن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر

ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

و قيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب و غيرهم لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين و الشروع فى قتال أهل الكتاب و نحوهم فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع لا مفهوما له.

و يدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية و ليسوا أهل كتاب و لأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة

و من بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث:-

1-إما الإسلام 2-أو أداء الجزية 3-أو السيف من غير فرق بين كِتَابِيٍّ و غيره.

*فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِعْزَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَ لَا رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلْ هُمْ أَذِلَّاءُ صَغَرة أَشْقِيَاءُ

*مسلم (2167)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:-

«لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَ لَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»

*فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا بِمَا جَاءُوا بِهِ وَ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَ أَهْوَاءَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ لَا لِأَنَّهُ شَرْعُ اللَّهِ وَ دِينُهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بِأَيْدِيهِمْ إِيمَانًا صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِين بَشَّرُوا بِهِ وَ أَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ فَلَمَّا جَاءَ وَ كَفَرُوا بِهِ وَ هُوَ أَشْرَفُ الرُّسُلِ عُلِم أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُتَمَسِّكِينَ بِشَرْعِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَلْ لِحُظُوظِهِمْ وَ أَهْوَائِهِمْ فَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ بِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ وَ أَفْضَلِهِمْ وَ خَاتَمِهِمْ وَ أَكْمَلِهِمْ وَ لِهَذَا قَالَ:-

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}

وَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ أَمَرَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ كَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَ لِهَذَا تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِقِتَالِ الرُّومِ وَ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَ أَظْهَرَهُ لَهُمْ وَ بَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَنَدَبَهُمْ فَأَوْعَبوا مَعَهُ وَ اجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَ تَخَلَّفَ بعضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَ غَيْرِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَدْبٍ وَ وَقْتِ قَيْظٍ وَ حَرٍّ وَ خَرَجَ ﷺيُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ فَبَلَغَ تَبُوكَ فَنَزَلَ بِهَا وَ أَقَامَ عَلَى مَائِهَا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا ثُمَّ اسْتَخَارَ اللَّهَ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ لِضِيقِ الْحَالِ وَ ضَعْفِ النَّاسِ ﴿٢٩﴾

*لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم و لدينه على قتالهم و الاجتهاد و بذل الوسع فيه فقال:–

(وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ)

و هذه المقالة و إن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم فيدل ذلك على أن فى اليهود من الخبث و الشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها على اللّه و تنقصوا عظمته و جلاله.

و قد قيل: إن سبب ادعائهم فى (عزير) أنه ابن اللّه أنه لما سلط الله الملوك على بنى إسرائيل و مزقوهم كل ممزق و قتلوا حَمَلَةَ التوراة وجدوا عزيرا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها فأملاها عليهم من حفظه و استنسخوها فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

(وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ)عيسى ابن مريم (ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ)قال اللّه تعالى

(ذَٰلِكَ)القول الذى قالوه(قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ)لم يقيموا عليه حجة و لا برهانا.

و من كان لا يبالى بما يقول لا يستغرب عليه أى قول يقوله فإنه لا دين و لا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

و لهذا قال:(يُضَٰهِـُٔونَ)يشابهون فى قولهم هذا

(قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ)قول المشركين الذين يقولون:–«الملائكة بنات اللّه»

*تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم فى البطلان.

(قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ)يصرفون على الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين.

و هذا –و إن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة ﴿٣٠﴾

أن تتفق على قول–يدل على بطلانه أدنى تفكر و تسليط للعقل عليه فإن لذلك سببا و هو أنهم:–

(ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ)و هم علماؤهم

(وَرُهۡبَٰنَهُمۡ)أى:العُبَّاد المتجردين للعبادة.

(أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)يُحِلُّون لهم ما حرم اللّه فيحلونه و يحرمون لهم ما أحل اللّه فيحرمونه و يشرعون لهم من الشرائع و الأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

و كانوا أيضا يغلون فى مشايخهم و عبادهم و يعظمونهم و يتخذون قبورهم أوثانا تعبد من دون اللّه و تقصد بالذبائح و الدعاء و الاستغاثة.

(وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ)

اتخذوه إلها من دون اللّه و الحال أنهم خالفوا في ذلك أمر اللّه لهم على ألسنة رسله

فما(وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ)

*الَّذِى إِذَا حَرَّمَ الشّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَ مَا حَلَّلَهُ حَلَّ وَ مَا شَرَعَهُ اتُّبِعَ وَ مَا حَكَمَ بِهِ نُفِّذَ.

*فيخلصون له العبادة و الطاعة و يخصونه بالمحبة و الدعاء فنبذوا أمر اللّه و أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا.

(سُبۡحَٰنَهُۥ)تنزه و تقدس و تعالت عظمته عن شركهم و افترائهم(عَمَّا يُشۡرِكُونَ)

فإنهم ينتقصونه في ذلك و يصفونه بما لا يليق بجلاله و اللّه تعالى العالى فى أوصافه و أفعاله عن كل ما نسب إليه مما ينافى كماله المقدس(٣١)

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

*فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه و لا برهان لما أصَّلوه و إنما هو مجرد قول قالوه و افتراء افتروه أخبر أنهم(يُرِيدُونَ)بهذا(أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ)دين(ٱللَّهِ)الذى أرسل به الرسل و أنزل به الكتب

*و سماه اللّه نورا لأنه يستنار به في ظلمات الجهل و الأديان الباطلة فإنه علم بالحق و عمل بالحق و ما عداه فإنه بضده فهؤلاء اليهود و النصارى و من ضاهوه من المشركين يريدون أن يطفئوا نور اللّه:-

(بِأَفْوَٰهِهِمْ)بمجرد أقوالهم التى ليس عليها دليل أصلا

(وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ)

لأنه النور الباهر الذى لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه و الذى أنزله جميع نواصى العباد بيده و قد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء و لهذا قال:-

(وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ)

و سعوا ما أمكنهم فى رده و إبطاله فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا.

*مسلم(2889) عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

إِنَّ اللهَ زَوَى(جمع)لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَ مَغَارِبَهَا وَ إِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا

وَ أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَ الْأَبْيَضَ(المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام)

وَ إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ

وَ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ(جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك)

وَ إِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ

(أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام)

وَ أَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ

وَ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا-أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا-حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَ يَسْبِى بَعْضُهُمْ بَعْضًا

*أحمد 19378 عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺفَقُلْتُ:-

هَذَا عَدِىٌّ فِى نَاحِيَةِ الْكُوفَةِ فَلَوْ أَتَيْتُهُ فَكُنْتُ أَنَا الَّذِى أَسْمَعُهُ مِنْهُ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:-

إِنِّى كُنْتُ أُحَدَّثُ عَنْكَ حَدِيثًا فَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِى أَسْمَعُهُ مِنْكَ قَالَ:-

لَمَّا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ النَّبِىَّ ﷺفَرَرْتُ مِنْهُ حَتَّى كُنْتُ فِى أَقْصَى أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا يَلِي الرُّومَ

قَالَ: فَكَرِهْتُ مَكَانِى الَّذِى أَنَا فِيهِ حَتَّى كُنْتُ لَهُ أَشَدَّ كَرَاهِيَةً لَهُ مِنِّى مِنْ حَيْثُ جِئْتُ

قَالَ: قُلْتُ: لَآتِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ وَ لَئِنْ كَانَ كَاذِبًا مَا هُوَ بِضَائِرِى.

قَالَ: فَأَتَيْتُهُ وَ اسْتَشْرَفَنِى النَّاسُ وَ قَالُوا: عَدِىُّ بْنُ حَاتِمٍ عَدِىُّ بْنُ حَاتِمٍ

قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ ثَلَاثَ مِرَارٍ.قَالَ: فَقَالَ لِى :" يَا عَدِىُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ "

قَالَ: قُلْتُ: إِنِّى مِنْ أَهْلِ دِينٍ.

قَالَ:-"يَا عَدِىُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ "قَالَ: قُلْتُ: إِنِّى مِنْ أَهْلِ دِينٍ.

قَالَهَا ثَلَاثًا. قَالَ:"أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ "قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِى مِنِّى؟

قَالَ:-" نَعَمْ ".قَالَ: " أَلَيْسَ تَرْأَسُ قَوْمَكَ؟ "قَالَ: قُلْتُ: بَلَى

قَالَ: فَذَكَرَ مُحَمَّدٌ الرَّكُوسِيَّةَ قَالَ كَلِمَةً الْتَمَسَهَا يُقِيمُهَا فَتَرَكَهَا قَالَ:-"فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ فِى دِينِكَ الْمِرْبَاعُ "

قَالَ: فَلَمَّا قَالَهَا تَوَاضَعَتْ مِنِّى هُنَيَّةٌ قَالَ: وَ قَالَ:-

"إِنِّى قَدْ أَرَى أَنَّ مِمَّا يَمْنَعُكَ خَصَاصَةٌ تَرَاهَا بِمَنْ حَوْلِى وَ أَنَّ النَّاسَ عَلَيْنَا أَلْبٌ وَاحِدٌ .

هَلْ تَعْلَمُ مَكَانَ الْحِيرَةِ؟ " قَالَ: قُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهَا وَ لَمْ آتِهَا.

قَالَ:-"لَتُوشِكَنَّ الظَّعِينَةُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا بِغَيْرِ جِوَارٍ(جوار)(جَوَازٍ) حَتَّى تَطُوفَ ".

حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ وَ لَتُوشِكَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ أَنْ تُفْتَحَ "

قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟قَالَ:-"كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ". قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟

قَالَ:-"كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَبْتَغِىَ مَنْ يَقْبَلُ مَالَهُ مِنْهُ صَدَقَةً فَلَا يَجِدُ "

قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ ثِنْتَيْنِ :-

1-قَدْ رَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ بِغَيْرِ جِوَارٍ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ

2-وَ كُنْتُ فِى الْخَيْلِ الَّتِى غَارَتْ

وَ قَالَ يُونُسُ: عَنْ حَمَّادٍ: أَغَارَتْ عَلَى الْمَدَائِنِ. وَ ايْمُ اللهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ إِنَّهُ لَحَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

*مسلم(2907)عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:

«لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ(لا ينقطع الزمان ولا تأتي القيامة)حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَ الْعُزَّى»

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ:-

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: 33] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا

قَالَ «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى(أصله تتوفى حذفت إحدى التاءين أي تأخذ الأنفس وافية تامة)

كُلَّ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»32

*ثم بين تعالى هذا النور الذى قد تكفل بإتمامه و حفظه فقال:-

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ)الذى هو العلم النافع

(وَدِينِ ٱلۡحَقِّ)الذى هو العمل الصالح فكان ما بعث اللّه به محمدا ﷺمشتملا على بيان الحق من الباطل فى أسماء اللّه و أوصافه و أفعاله و فى أحكامه و أخباره و الأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب و الأرواح و الأبدان

مـن:-

1-إخلاص الدين للّه وحده 2-و محبة اللّه و عبادته

3-و الأمر بمكارم الأخلاق و محاسن الشيم و الأعمال الصالحة و الآداب النافعة

4-و النهى عن كل ما يضاد ذلك و يناقضه من الأخلاق و الأعمال السيئة المضرة للقلوب و الأبدان و الدنيا و الآخرة. فأرسله اللّه بالهدى و دين الحق

(لِيُظۡهِرَهُۥ)ليعليه(عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ)سائر الأديان بالحجة و البرهان و السيف و السنان

(وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ)و إن كره المشركون ذلك و بغوا له الغوائل و مكروا مكرهم

فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه فوعد اللّه لا بد أن ينجزه و ما ضمنه لا بد أن يقوم به33

نهب الأحبار لأموال الناس و عقابهم 34-35

*ثم حذَّر اللّه تعالى عباده المؤمنين فقال:-

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ)العلماء(وَٱلرُّهۡبَانِ)العباد

(لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ)بغير حق

(وَيَصُدُّونَ)يمنعون الناس(عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ)من الدخول فى الإسلام

فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم و عبادتهم و لأجل هداهم و هدايتهم

*لكن أخذهم لها على هذا الوجه سحتا و ظلما فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

و من أخذهم لأموال الناس بغير حق:-أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل اللّه

فهؤلاء الأحبار و الرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان:-

1-أخذهم لأموال الناس بغير حق 2-و صدهم الناس عن سبيل اللّه.

(وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ)يمسكون(ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ)طرق الخير الموصلة إلى اللّه

*و هذا هو الكنز المحرم أن يمسكها عن النفقة الواجبة كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات

أو الأقارب أو النفقة فى سبيل اللّه إذا وجبت.

(فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ)

هَؤُلَاءِ هُمْ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَ عَلَى الْعُبَّادِ وَ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ كَمَا قَالَ عبد الله بن المبارك رحمه الله:-

وَ هَل أفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ... وَ أحبارُ سُوءٍ وَ رُهْبَانُها؟

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى 1406-عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ:-

مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ(موضع على ثلاث مراحل من المدينة فيه قبر أبي ذر ﷺ)فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ ﷺفَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلكَ هَذَا؟

قَالَ:كُنْتُ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا و مُعَاوِيَةُ فِي:-{الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[التوبة: 34]

قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الكِتَابِ فَقُلْتُ:نَزَلَتْ فِينَا وَ فِيهِمْ فَكَانَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ فِي ذَاكَ(نزاع فيمن نزلت هذه الآية)

وَ كَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ ﷺيَشْكُونِي فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ:-أَنِ اقْدَمِ المَدِينَةَ فَقَدِمْتُهَا فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ (يسألونه عن سبب خروجه من دمشق وعما جرى بينه وبين معاوية)حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي قَبْلَ ذَلِكَ فَذَكَرْتُ ذَاكَ لِعُثْمَانَ "

فَقَالَ لِي:إِنْ شِئْتَ تَنَحَّيْتَ(اعتزلت وتباعدت)فَكُنْتَ قَرِيبًا

«فَذَاكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا المَنْزِلَ وَ لَوْ أَمَّرُوا عَلَيَّ حَبَشِيًّا لَسَمِعْتُ وَ أَطَعْتُ»﴿٣٤﴾

ثم فسره بقوله:–(يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا)على أموالهم

(فِي نَارِ جَهَنَّمَ)فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

(فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ)

فى يوم القيامة كلما بردت أعيدت فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة

و يقال لهم توبيخا و لوما:–(هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ)

فما ظلمكم و لكنكم ظلمتم أنفسكم و عذبتموها بهذا الكنز.

و ذكر اللّه فى هاتين الآيتين انحراف الإنسان فى ماله و ذلك بأحد أمرين: –

1–إما أن ينفقه فى الباطل الذى لا يجدى عليه نفعا بل لا يناله منه إلا الضرر المحض

و ذلك كإخراج الأموال فى المعاصى و الشهوات التى لا تعين على طاعة اللّه و إخراجها للصد عن سبيل اللّه.

2–و إما أن يمسك ماله عن إخراجه فى الواجبات و « النهى عن الشيء أمر بضده »

*كقوله(ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ)الدخان

*البخارى1403 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ(صير له)مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا(الحية الذكر أو الثعبان)

أَقْرَعَ(لا شعر على رأسه لكثرة سمه وطول عمره)لَهُ زَبِيبَتَانِ(نابان يخرجان من فمه أو نقطتان سوداوان فوق عينيه وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه)

يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ-يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ(جانبي الفم)-

ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلاَ:-(لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) "

*مسلم(987)عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَ لَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَ ظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَ إِمَّا إِلَى النَّارِ»
*البخارى 4660 عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: مَرَرْتُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَقُلْتُ:-مَا أَنْزَلَكَ بِهَذِهِ الأَرْضِ؟
قَالَ:-" كُنَّا بِالشَّأْمِ فَقَرَأْتُ:-{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[التوبة: 34]
قَالَ مُعَاوِيَةُ:-مَا هَذِهِ فِينَا مَا هَذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الكِتَابِ قَالَ: قُلْتُ:-«إِنَّهَا لَفِينَا وَ فِيهِمْ»(٣٥)

الأشهر الحرم و تلاعب المشركين بها 36-37

(إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ)أى:فى قضائه و قدره.

(ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا)و هى هذه الشهور المعروفة

(فِي كِتَٰبِ)حكم (ٱللَّهِ)القدرى(يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ)

و أجرى ليلها و نهارها و قدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهرا .

(مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ)و هى:–رجب الفرد و ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم

و سميت حرما لزيادة حرمتها و تحريم القتال فيها.
*وَ أَمَّا قَوْلُهُ:-"ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ:-ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ الْمُحَرَّمُ وَ رَجَبُ مُضَرَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَ شَعْبَانَ فَإِنَّمَا أَضَافَهُ إِلَى مُضَرَ لِيُبَيِّنَ صِحَّةَ قَوْلِهِمْ فِي رَجَبٍ:-أَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَ شَعْبَانَ
لَا كَمَا كَانَتْ تَظُنُّهُ رَبِيعَةُ مِنْ أَنَّ رَجَبَ الْمُحَرَّمَ هُوَ:-الشَّهْرُ الَّذِى بَيْنَ شَعْبَانَ وَ شَوَّالٍ وَ هُوَ رَمَضَانُ الْيَوْمَ فَبَيَّنَ ﷺأَنَّهُ رَجَبُ مُضَرَ لَا رَجَبُ رَبِيعَةَ

(ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ)هَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُسْتَقِيمُ مِنِ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ فِيمَا جَعَلَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ و الحَذْوِ بِهَا عَلَى مَا سَبَقَ فِي كِتَابِ اللهِ الْأَوَّلِ.

(فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ)

يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا و أن اللّه تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد و أن تعمر بطاعته

و يشكر اللّه تعالى على مِنَّتِهِ بها و تقييضها لمصالح العباد فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

و يحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم

و أن هذا نهى لهم عن الظلم فيها خصوصا مع النهى عن الظلم كل وقت لزيادة تحريمها

و كون الظلم فيها أشد منه فى غيرها. و من ذلك النهى عن القتال فيها على قول من قال:–

إن القتال فى الأشهر الحرام لم ينسخ تحريمه عملا بالنصوص العامة فى تحريم القتال فيها.

*وَ قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ}
إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَ وِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا وَ إِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ.

قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى صَفَايا مِنْ خَلْقِهِ اصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ رُسُلًا وَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ ذِكْرَه وَ اصْطَفَى مِنَ الْأَرْضِ الْمَسَاجِدَ وَ اصْطَفَى مِنَ الشهور رمضان و الأشهر الحرم وَ اصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَ اصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَعَظِّموا مَا عَظَّمَ اللَّهُ فَإِنَّمَا تُعظم الْأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللَّهُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَ أَهْلِ الْعَقْلِ.

*و منهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ أخذا بعموم نحو قوله تعالى:-

(وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ)

أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين و الكافرين برب العالمين.

و لا تخصوا أحدا منهم بالقتال دون أحد بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم لا يألونهم من الشر شيئا.

و يحتمل أن(كَافَّةً)حال من الواو فيكون معنى هذا:-

و قاتلوا جميعكم المشركين فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين.

و قد نسخت على هذا الاحتمال بقوله:-(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)الآية.

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ)بعونه و نصره و تأييده

فلتحرصوا على استعمال تقوى اللّه فى سركم و علنكم و القيام بطاعته خصوصا عند قتال الكفار فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى فى معاملة الكفار الأعداء المحاربين

*مسلم (1679)عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:-

"إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ(العلماء معناه أنهم فى الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم ﷺ فى تحريم الأشهر الحرم وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده وهو صفر ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم الأمر وصادفت حجة النبى ﷺ تحريمهم وقد طابق الشرع وكانوا فى تلك السنة قد حرموا ذا الحجة لموافقة الحساب الذى ذكرناه فأخبر النبى ﷺ أن الاستدارة صادفت ما حكم الله تعالى به يوم خلق السموات و الأرض وقال أبو عبيد كانوا ينسؤون أي يؤخرون وهو الذى قال الله تعالى فيه إنما النسىء زيادة في الكفر فربما احتاجوا إلى الحرب فى المحرم فيؤخرون تحريمه إلى صفر ثم يؤخرون صفر فى سنة أخرى فصادف تلك السنة رجوع المحرم إلى موضعه)

يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ:-

1-ذُو الْقَعْدَةِ 2-وَ ذُو الْحِجَّةِ 3-وَ الْمُحَرَّمُ 4-وَ رَجَبٌ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَ شَعْبَانَ "

(إنما قيده هذا التقييد مبالغة في إيضاحه وإزالة اللبس عنه قالوا وقد كان بين مضر وبين ربيعة اختلاف فى رجب فكانت مضر تجعل رجبا هذا الشهر المعروف الآن وهو الذى بين جمادى وشعبان وكانت ربيعة تجعله رمضان فلهذا أضافه النبى ﷺ إلى مضر)

ثُمَّ قَالَ:«أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»(هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفخيم والتقرير والتنبيه على عظم مرتبة هذا الشهر والبلد واليوم)قُلْنَا:- اللهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ

قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ

(هذا من حسن أدبهم فإنهم علموا أنه صلى الله عليه وسلم لا يخفى عليه ما يعرفونه من الجواب فعرفوا أنه ليس المراد مطلق الإخبار بما يعرفون)

قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِه قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟»قُلْنَا: بَلَى قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِه قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟»

قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: " فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَ أَمْوَالَكُمْ(المراد بهذ كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال و الدماء والأعراض والتحذير من ذلك)

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَ أَحْسِبُهُ قَالَ: وَ أَعْرَاضَكُمْ-حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا- أَوْ ضُلَّالًا-يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ

أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ "

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ فِي رِوَايَتِهِ:-وَ رَجَبُ مُضَرَ وَ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ:-

«فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي»

*قال بن كثير:-وَ قَوْلُهُ ﷺفِي الْحَدِيثِ:-إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يوم خلق الله السموات وَ الْأَرْضَ":-

تَقْرِيرٌ مِنْهُ ﷺ وَ تَثْبِيتٌ لِلْأَمْرِ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمٍ وَ لَا تَأْخِيرٍ وَ لَا زِيَادَةٍ وَ لَا نَقْصٍ وَ لَا نَسيءٍ وَ لَا تَبْدِيلٍ كَمَا قَالَ فِي تَحْرِيمِ مَكَّةَ:-

إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"

وَ هَكَذَا قَالَ هَاهُنَا:"إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ"

أَيْ:-الْأَمْرُ الْيَوْمَ شَرْعًا كَمَا ابْتَدَأَ اللَّهُ ذلك فى كتابه يوم خلق السموات وَ الْأَرْضَ﴿٣٦﴾

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ)

النسيء:–هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه فى الأشهر الحرم

و كان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم رأوا–بآرائهم الفاسدة–أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التى حرم اللّه القتال فيها

و أن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه و يجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا

فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه و جعلوا الشهر الحلال حراما

فهذا–كما أخبر اللّه عنهم–أنه(زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ)و الضلال لما فيه من المحاذير:–

1–أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم و جعلوه بمنزلة شرع اللّه و دينه و اللّه و رسوله بريئان منه.

2–أنهم قلبوا الدين فجعلوا الحلال حراما و الحرام حلالا.

3–أنهم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم و على عباده و لبسوا عليهم دينهم و استعملوا الخداع و الحيلة في دين اللّه.

4–أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس و ربما ظن أنها عوائد حسنة فحصل من الغلط و الضلال ما حصل و لهذا قال:–

(يُضَلُّ)يضل الشيطان(بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ)يحلون الذى أخروا تحريمه من الأشهر الأربعة

(عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ)ليوافقوا(عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ)فى العدد

(فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ)

(زُيِّنَ)زينت(لَهُمۡ)الشياطين

(سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ)الأعمال السيئة فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزينة فى قلوبهم.

(وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ)

أى:–الذين انصبغ الكفر و التكذيب فى قلوبهم فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا37

*اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك إذ ندب النبى ﷺالمسلمين إلى غزو الروم و كان الوقت حارا و الزاد قليلا و المعيشة عسرة فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم اللّه تعالى عليه و يستنهضهم فقال تعالى:–

الأمر بالجهاد و التذكير بنصر الله 38-41

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)

ألا تعملون بمقتضى الإيمان و داعي اليقين من المبادرة لأمر اللّه و المسارعة إلى رضاه و جهاد أعدائه و النصرة لدينكم

فـــ(مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ)تكاسلتم و ملتم

(إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ)الأرض و الدعة و السكون فيها.

(أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ)

أي: ما حالكم إلا حال من بالدنيا و سعى لها و لم يبال بالآخرة فكأنه ما آمن بها.

(فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ)التى مالت بكم و قدمتموها على الآخرة

(إِلَّا قَلِيلٌ)أفليس قد جعل اللّه لكم عقولا تَزِنُون بها الأمور و أيها أحق بالإيثار؟.

أفليست الدنيا–من أولها إلى آخرها–لا نسبة لها في الآخرة.

فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها

فيجعل سعيه و كده و همه و إرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار.

*فبأى رَأْيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم التى فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين و أنتم فيها خالدون فواللّه ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان فى قلبه و لا من جزل رأيه و لا من عُدَّ من أولى الألباب

*مسلم (2858) عن الْمُسْتَوْرِدِ أَخَى بَنِى فِهْرٍ يَقُولُ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«وَ اللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَ أَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ-فِي الْيَمِّ(البحر) فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(ضبطوا يرجع بالتاء وبالياء والأول أشهر ومن رواه بالياء أعاد الضمير إلى أحدكم وبالتاء أعاده على الإصبع وهو الأظهر ومعناه لا يعلق بها كثير شيء من الماء ومعنى الحديث ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر)وَ أَشَارَ إِسْمَاعِيلُ بِالْإِبْهَامِ38

*ثم توعدهم على عدم النفير فقال:-

(إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

في الدنيا و الآخرة فإن عدم النفير فى حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب لما فيها من المضار الشديدة

فإن المتخلف:-

1-قد عصى اللّه تعالى و ارتكب لنهيه 2-و لم يساعد على نصر دين اللّه

3-و لا ذب عن كتاب اللّه و شرعه

4-و لا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذى يريد أن يستأصلهم و يمحق دينهم

5-و ربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان

6-بل ربما فَتَّ فى أعضاد من قاموا بجهاد أعداء اللّه

فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده اللّه بالوعيد الشديد فقال:-

(إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ)ثم لا يكونوا أمثالكم

(وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا)

فإنه تعالى متكفل بنصر دينه و إعلاء كلمته فسواء امتثلتم لأمر اللّه أو ألقيتموه وراءكم ظهريا.

*و لن تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد فهو الغنى عنكم وأنتم الفقراء إليه.

(وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)لا يعجزه شيء أراده و لا يغالبه أحد39

(إِلَّا تَنصُرُوهُ) تنصروا رسوله محمدا ﷺ فاللّه غنى عنكم لا تضرونه شيئا

(فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ)فى أقل ما يكون و أذلة

(إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟)

من مكة لما هموا بقتله و سعوا فى ذلك و حرصوا أشد الحرص فألجؤوه إلى أن يخرج.

(ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ)أى: هو و أبو بكر الصديق

(إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ)أى:لما هربا من مكة لجآ إلى غار ثور فى أسفل مكة فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما

فأنزل اللّه عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

(إِذۡ يَقُولُ)النبى ﷺ(لِصَٰحِبِهِۦ)أبى بكر لما حزن و اشتد قلقه

(لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ)بعونه و نصره و تأييده.

(فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ)أى: الثبات و الطمأنينة و السكون المثبتة للفؤاد

و لهذا لما قلق صاحبه سكنه و قال(لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ)

(وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ)أى:-الملائكة الكرام الذين جعلهم اللّه حرسا له(لَّمۡ تَرَوۡهَا)

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ)الساقطة المخذولة

فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين فى ظنهم على قتل الرسول ﷺو أخذه حنقين عليه فعملوا غاية مجهودهم فى ذلك فخذلهم اللّه و لم يتم لهم مقصودهم بل و لا أدركوا شيئا منه.

و نصر اللّه رسوله بدفعه عنه و هذا هو النصر المذكور فى هذا الموضع

*البخارى 2810 عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنهقَالَ:-

جَاءَ رَجُلٌ(قيل هو لاحق بن ضميرة الباهلى رضي الله عنه)إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ الرَّجُلُ:-
يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ(من أجل الغنيمة)وَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ(الشهرة بين الناس)وَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ(مرتبته في الشجاعة)
فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

فإن النصر على قسمين:-

1-نصر المسلمين إذا طمعوا فى عدوهم بأن يتم اللّه لهم ما طلبوا و قصدوا و يستولوا على عدوهم و يظهروا عليهم.

2-نصر المستضعف الذى طمع فيه عدوه القادر فنصر اللّه إياه أن يرد عنه عدوه و يدافع عنه

و لعل هذا النصر أنفع النصرين و نصر اللّه رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين من هذا النوع.

(وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ)أى كلماته القدرية و كلماته الدينية هى العالية على كلمة غيره

التى من جملتها قوله:-

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

*فدين اللّه هو الظاهر العالي على سائر الأديان بالحجج الواضحة و الآيات الباهرة و السلطان الناصر.

(وَٱللَّهُ عَزِيزٌ)لا يغالبه مغالب و لا يفوته هارب

(حَكِيمٌ)يضع الأشياء مواضعها و قد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

و فى هذه الآية الكريمة:-

1–فضيلة أبى بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة و هي الفوز بهذه المنقبة الجليلة و الصحبة الجميلة و قد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة

و لهذا عدوا من أنكر صحبة أبى بكر للنبى ﷺكافرا لأنه منكر للقرآن الذى صرح بها.

2–و فيها فضيلة السكينة و أنها من تمام نعمة اللّه على العبد فى أوقات الشدائد و المخاوف التى تطيش بها الأفئدة و أنها تكون على حسب معرفة العبد بربه و ثقته بوعده الصادق و بحسب إيمانه و شجاعته.

3–و فيها:أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين مع أن الأولى–إذا نزل بالعبد–أن يسعى فى ذهابه عنه فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة

*عَامَ الْهِجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا صُحْبَةَ صدِّيقه وَ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَلَجَأَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَرْجِعَ الطَّلَبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ثُمَّ يَسِيرَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ

*مسلم (2381) عن أَنَس بْنُ مَالِكٍ﵁ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ:-

نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَ نَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ:-

يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ:-«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»

(معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل في قوله تعالى {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون})﴿٤٠﴾

ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

*أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

يقول تعالى لعباده المؤمنين – مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال:-

(ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا)فى العسر و اليس رو المنشط و المكره و الحر و البرد و فى جميع الأحوال.

*شَبَابًا وَ شُيُوخًا وَ أَغْنِيَاءَ وَ مَسَاكِينَ. مَشَاغِيلُ وَ غَيْرُ مَشَاغِيلَ.غَنِيًّا وَ فَقِيراً وَ قَوِيًّا وَ ضَعِيفًا

*البخارى7463 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-

«تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَ تَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»

(وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ)

أي: ابذلوا جهدكم في ذلك و استفرغوا وسعكم في المال و النفس

و فى هذا دليل على أنه–كما يجب الجهاد في النفس–يجب الجهاد في المال حيث اقتضت الحاجة و دعت لذلك

ثم قال: (ذَٰلِكُمۡ)أي: الجهاد في النفس و المال(خَيۡرٞ لَّكُمۡ)من التقاعد عن ذلك

لأن فيه رضا اللّه تعالى و الفوز بالدرجات العاليات عنده و النصر لدين اللّه و الدخول في جملة جنده و حزبه

(إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)

*وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الْبَقَرَة: 216]

فضح المنافقين 42-59

(لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا)لو كان خروجهم لطلب العرض القريب أى:-منفعة دنيوية سهلة التناول

(وَ)كان السفر(وَسَفَرٗا قَاصِدٗا)قريبا سهلا.

(لَّٱتَّبَعُوكَ)لعدم المشقة الكثيرة-لَكَانُوا جَاءُوا مَعَكَ لِذَلِكَ

(وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ)

طالت عليهم المسافة و صعب عليهم السفر فلذلك تثاقلوا عنك و ليس هذا من أمارات العبودية

*بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال القائم بالعبادة السهلة و الشاقة فهذا العبد للّه على كل حال.

(وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ)

سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم أعذرا و أنهم لا يستطيعون ذلك.

(يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ)بالقعود و الكذب و الإخبار بغير الواقع

(وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ)و هذا العتاب إنما هو للمنافقين الذين تخلفوا عن النبى ﷺفى« غزوة تبوك »

و أبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا فعفا النبى ﷺعنهم بمجرد اعتذارهم من غير أن يمتحنهم فيتبين له الصادق من الكاذب و لهذا عاتبه اللّه على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:-

*يقول تعالى لرسوله ﷺ:-(عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ)سامحك و غفر لك ما أجريت

*هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ: {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ}

*وَ قَالَ قَتَادَةُ: عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ الَّتِي فِي سُورَةِ النُّورِ فرخص لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ:-

{فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} [النُّور: 62]

(لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ)فى التخلف(حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)

بأن تمتحنهم ليتبين لك الصادق من الكاذب فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك﴿٤٣﴾

(لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ

ثم أخبر أن المؤمنين باللّه و اليوم الآخر لا يستأذنون فى ترك الجهاد بأموالهم و أنفسهم لأن:-

1-ما معهم من الرغبة في الخير و الإيمان ⇦يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث

2-فضلا عن كونهم يستأذنون فى تركه من غير عذر.

(وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ)فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه و من علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم:-

أنهم لا يستأذنون فى ترك الجهاد﴿٤٤﴾

(إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ)شكت(قُلُوبُهُمْ)فى صحة ما جئتهم به

أى:ليس لهم إيمان تام و لا يقين صادق فلذلك قلَّتْ رغبتهم في الخير و جبنوا عن القتال و احتاجوا أن يستأذنوا فى ترك القتال.

(فَهُمْ)لا يزالون(فِى رَيْبِهِمْ)شكهم

(يَتَرَدَّدُونَ)يَتَحَيَّرُونَ يُقَدِّمُون رِجْلًا وَ يُؤَخِّرُونَ أُخْرَى وَ لَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ مَنْ يضلل الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا45

*يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية و أن أعذارهم التى اعتذروها باطلة فإن العذر هو المانع الذى يمنع إذا بذل العبد وسعه و سعى فى أسباب الخروج ثم منعه مانع شرعى فهذا الذى يعذر.

(و)أما هؤلاء المنافقون

فـــ(وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّوا۟)لاستعدوا و عملوا و تأهبوا(لَهُۥ عُدَّةً)من الأسباب

و لكن لما لم يعدوا له عدة عُلِم أنهم ما أرادوا الخروج.

(وَلَـٰكِن كَـرِهَ)أَبْغَضَ(ٱللَّهُ ٱنۢبِعَـاثَهُمْ)خروجهم معكم للغزو(فَثَبَّطَهُمْ)قدرا و قضاء

و إن كان قد أمرهم و حثهم على الخروج و جعلهم مقتدرين عليه و لكن بحكمته ما أراد إعانتهم بل خذلهم و ثبطهم (وَقِيلَ ٱقْعُـدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ)من النساء و المعذورين من المرضى و الضعفاء و الصبيان﴿٤٦﴾

ثم ذكر الحكمة فى ذلك فقال:-(لَوْ خَـرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا)نقصا

لأنهم جبناء مخذولون و لنشروا الاضطراب فى الصفوف وا لشر و الفساد

(وَلَأَوْضَعُوا۟)و لسعوا و أسرعوا السير و المشى فى الفتنة و الشر بينكم و فرقوا جماعتكم المجتمعين

(خِلَـٰلَكُمْ)بينكم بالنميمة و البغضاء و الفتنة

(يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ)أى: هم حريصون على فتنتكم و إلقاء العداوة بينكم.

(وَفِيكُمْ)أناس ضعفاء العقول

(سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ)مُطِيعُونَ لَهُمْ وَ مُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَ كَلَامِهِمْ يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَ إِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ فَيُؤَدِّي هَذَا إِلَى وُقُوعِ شَرٍّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ فَسَادٍ كَبِيرٍ.

أى:مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم و إلقاء الشر بينكم و تثبيطكم عن أعدائكم و فيكم من يقبل منهم و يستنصحهم.

فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين و النقص الكثير منهم

فللّه أتم الحكمة حيث ثبطهم و منعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم و لطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم.

(وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ)فيعلم عباده كيف يحذرونهم و يبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم٤٧

لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

*ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:–

(لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ)أي:حين هاجرتم إلى المدينة بذلوا الجهد

(وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ)

أداروا الأفكار و أعملوا الحيل فى إبطال دعوتكم و خذلان دينكم و لم يقصروا في ذلك

*وَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَ حَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا فَلَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ: -
هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّه. فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَ أَهْلَهُ اظَهُمْ ذَلِكَ وَ سَاءَهُمْ
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:–

(حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ)فبطل كيدهم و اضمحل باطلهم

فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر اللّه عباده المؤمنين منهم و أن لا يبالى المؤمنين بتخلفهم عنهم﴿٤٨﴾

(وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ)و من هؤلاء المنافقين من يستأذن فى التخلف و يعتذر بعذر آخر عجيب

فيقول:–(ٱئۡذَن لِّي)في التخلف

(وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ)فى الخروج فإنى إذا خرجت فرأيت نساء بين الأصفر لا أصبر عنهن

كما قال ذلك«الجد بن قيس»و مقصوده–قبحه اللّه–الرياء و النفاق بأن مقصودى مقصود حسن

فإن فى خروجى فتنة و تعرضا للشر و فى عدم خروجى عافية و كفا عن الشر.

قال اللّه تعالى مبينا كذب هذا القول:-

(أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ)

فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده فإن فى التخلف مفسدة كبرى و فتنة عظمى محققة

و هى معصية اللّه و معصية رسوله و التجرؤ على الإثم الكبير و الوزر العظيم

و أما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف و هى متوهمة مع أن هذا القائل قصده التخلف لا ير

و لهذا توعدهم اللّه بقوله:-

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ)ليس لهم عنها مفر و لا مناص و لا فكاك و لا خلاص﴿٤٩﴾

*يقول تعالى مبينا أن المنافقين هم الأعداء حقا المبضون للدين صرفا:-

(إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ)كنصر و إدالة على العدو

(تَسُؤۡهُمۡۖ)تحزنهم و تمهم

(وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ)كإدالة العدو عليك

(يَقُولُواْ)متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

(قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ)أى: قد حذرنا و عملنا بما ينجينا من الوقوع فى مثل هذه المصيبة.

(وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ)فيفرحون بمصيبتك و بعدم مشاركتهم إياك فيها﴿٥٠﴾

قال تعالى رادا عليهم في ذلك:-

(قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا)قدره و أجراه فى اللوح المحفوظ.

(هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ)متولى أمورنا الدينية و الدنيوية فعلينا الرضا بأقداره و ليس فى أيدينا من الأمر شيء.

(وَعَلَى ٱللَّهِ)وحده(فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)يعتمدوا عليه فى جلب مصالحهم و دفع المضار عنهم

و يثقوا به فى تحصيل مطلوبهم فلا خاب من توكل عليه

و أما من توكل على يره فإنه مخذول ير مدرك لما أمل﴿٥١﴾

(قُلۡ)للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر:-

(هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ)أى شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرا فيه اية نفعنا

(إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ):-

1-إما الظفر بالأعداء و النصر عليهم و نيل الثواب الأخروي و الدنيوى.

2–و إما الشهادة التى هى من أعلى درجات الخلق و أرفع المنازل عند اللّه.

(وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ)و أما تربصنا بكم–يا معشر المنافقين–فنحن نتربص بكم

(أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ)لا سبب لنا فيه

(أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ)بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم(فَتَرَبَّصُوٓاْ)بنا الخير(إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)بكم الشر ٥٢

*يقول تعالى مبينا بطلان نفقات المنافقين و ذاكرا السبب فى ذلك

(قُلۡ)لهم(أَنفِقُواْ طَوۡعًا)طائعين من أنفسكم(أَوۡ كَرۡهًا)مكرهين على ذلك بير اختياركم.

(لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ)شيء من أعمالكم(إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ)خارجين عن طاعة اللّه ٥٣

ثم بين صفة فسقهم و أعمالهم فقال:–

(وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ)

و الأعمال كلها شرط قبولها الإيمان فهؤلاء لا إيمان لهم و لا عمل صالح حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى قال:–

(وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ)متثاقلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

(وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ)من ير انشراح صدر و ثبات نفس ففى هذا اية الذم لمن فعل مثل فعلهم و أنه ينبى للعبد أن لا يأتى الصلاة إلا و هو نشيط البدن و القلب إليها و لا ينفق إلا و هو منشرح الصدر ثابت القلب يرجو ذخرها و ثوابها من اللّه وحده و لا يتشبه بالمنافقين.

*البخارى43 - عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺدَخَلَ عَلَيْهَا وَ عِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟»
قَالَتْ: فُلَانَةُ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا قَالَ: «مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»
وَ كَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ

*مسلم(1015) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ(قال القاضي الطيب في صفة الله تعالى بمعنى المنزه عن النقائص وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث)
لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَ إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ
فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: 51]
وَ قَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172]
ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ(هذه الجملة من كلام الراوي والضمير فيه للنبى ﷺوالرجل بالرفع مبتدأ مذكور على وجه الحكاية من لفظ رسول الله ﷺويجوز أن ينصب على أنه مفعول ذكر)
يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَ مَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَ مَشْرَبُهُ حَرَامٌ
وَ مَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَ غُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ "٥٤

فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾

(فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ)فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين و لا أولادهم فإنه لا غبطة فيها و أول بركاتها عليهم أن قدموها على مراضى ربهم و عصوا اللّه لأجلها

* كما قال{وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[طه: 131]

وَ قَالَ: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ}[الْمُؤْمِنُونَ]

(إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)

و المراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة فى تحصيلها و السعى الشديد في ذلك و هم القلب فيها و تعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم لم يكن لها نسبة إليها فهى–لما ألهتهم عن اللّه و ذكره–صارت وبالا عليهم حتى فى الدنيا.

*و من وبالها العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلق بها و إرادتهم لا تتعداها فتكون منتهى مطلوبهم و غاية مرغوبهم و لا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا

(وَتَزۡهَقَ)تخرج(أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ)

*فأى عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم و الحسرة الملازمة55

(وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ)قصدهم فى حلفهم هذا أنهم

(قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ)(يخافون من الفَرَق ليس من الفُرقة)-يخافون الدوائر

و ليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم.فيخافون إن أظهروا حالهم منكم

و يخافون أن تتبرأوا منهم فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

*و أما حال قوى القلب ثابت الجنان فإنه يحمله ذلك على بيان حاله حسنة كانت أو سيئة و لكن المنافقين

خلع عليهم خلعة الجبن و حلوا بحلية الكذب56

ثم ذكر شدة جبنهم فقال:-(لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا)يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد

(أَوۡ مَغَـٰرَٰتٍ)يدخلونها فيستقرون فيها فى الجبال

(أَوۡ مُدَّخَلٗا)و هو السرب فى الأرض و النفق-محلا يدخلونه فيتحصنون فيه

(لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ)يسرعون و يهرعون فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

(وَمِنۡهُم)أى:-و من هؤلاء المنافقين(مَّن يَلۡمِزُكَ)يعيبك(فِي)قسمة(ٱلصَّدَقَٰتِ)

و ينتقد عليك فيها و ليس انتقادهم فيها و عيبهم لقصد صحيح و لا لرأى رجيح و إنما مقصودهم أن يُعْطَوْا

منها.

*إِذَا فَرَّقْتَهَا وَ يَتَّهِمُكَ فِي ذَلِكَ وَ هُمُ الْمُتَّهَمُونَ الْمَأْبُونُونَ وَ هُمْ مَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ لِلدِّينِ وَ إِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ وَ لِهَذَا:-

(فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ)يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى6933 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:-
بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺيَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذِى الخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ:-اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ
فَقَالَ:-«وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ» قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ
قَالَ:-"دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ وَ صِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ
ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ
قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ: ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ
أَوْ قَالَ: مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ
" قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺو أَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَ أَنَا مَعَهُ جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺقَالَ:-فَنَزَلَتْ فِيهِ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 58]

*و هذه حالة لا تنبغى للعبد أن يكون رضاه و غضبه تابعا لهوى نفسه الدنيوى و غرضه الفاسد بل الذى ينبغى

أن يكون هواه تبعا لمرضاة ربه كما قال النبى ﷺ:-

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»(سَنَده ضَعِيف)(٥٨)

و قال هنا: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾أعطاهم من قليل و كثير.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ﴾كافينا﴿ٱللَّهُ ﴾فنرضى بما قسمه لنا و ليؤملوا فضله و إحسانه إليهم بأن يقولوا:–

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ متضرعون في جلب منافعنا و دفع مضارنا

لــ:–1–سلموا من النفاق 2–و لهدوا إلى الإيمان و الأحوال العالية

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾وَ كَذَلِكَ الرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ وَحدَهُ فِي التَّوْفِيقِ لِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَ امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَ تَرْكِ زَوَاجِرِهِ وَ تَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ وَ الِاقْتِفَاءِ بِآثاره(٥٩)

أهل الزكاة الثمانية 60

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:–

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ﴾أي:الزكوات الواجبة بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم لأنه حصرها فيهم و هم ثمانية أصناف:–

الأول و الثاني: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾و هم في هذا الموضع صنفان متفاوتان

فالفقير:– أشد حاجة من المسكين لأن اللّه بدأ بهم و لا يبدأ إلا بالأهم فالأهم

ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئا أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

و المسكين:– الذى يجد نصفها فأكثر و لا يجد تمام كفايته لأنه لو وجدها لكان غنيا فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم و مسكنتهم.

*أبي داود 1634 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
«لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَ لَا لِذِى مِرَّةٍ سَوِيٍّ» وَ قَالَ عَطَاءُ بْنُ زُهَيْرٍ: أَنَّهُ لَقِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو فَقَالَ:-«إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِقَوِيٍّ وَ لَا لِذِى مِرَّةٍ سَوِيٍّ»
*أبي داود1633 عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ قَالَ:-أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ:-
أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺفِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَ هُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ فَسَأَلَاهُ مِنْهَا فَرَفَعَ فِينَا الْبَصَرَ وَ خَفَضَهُ فَرَآنَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَ لَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَ لَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ»
*و أما المساكين:-
*البخارى 1479عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
«لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَ اللُّقْمَتَانِ وَ التَّمْرَةُ وَ التَّمْرَتَانِ وَ لَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِى لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَ لَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَ لَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

و الثالث:–العاملون على الزكاة و هم كل من له عمل و شغل فيها مـن:–

حافظ لها أو جاب لها من أهلها أو راع أو حامل لها أو كاتب أو نحو ذلك فيعطون لأجل عمالتهم و هى أجرة لأعمالهم فيها.

*مسلم 1072-قال النبي ﷺ :-
«إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِىَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَ إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَ لَا لِآلِ مُحَمَّدٍ»

و الرابع:– (وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ)المؤلف قلبه:–

1–هو السيد المطاع فى قومه ممن يرجى إسلامه:–
*وَ يَثْبُتَ قَلْبُهُ:-كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلَقَاءِ وَ أَشْرَافِهِمْ:-
مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ
*البخارى 1478-قال النبي ﷺ«إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَ غَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ»
*البخارى 3344 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺقَالَ:-بَعَثَ عَلِيٌّ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺبِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ:-
1-الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحَنْظَلِيِّ 2-ثُمَّ المُجَاشِعِيِّ 3-وَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزَارِيِّ 4-وَ زَيْدٍ الطَّائِيِّ
ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ وَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ العَامِرِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلَابٍ فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَ الأَنْصَارُ قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَ يَدَعُنَا

2–أو يخشى شره

3–أو يرجى بعطيته قوة إيمانه أو إسلام نظيره أو جبايتها ممن لا يعطيها فيعطى ما يحصل به التأليف و المصلحة.

4-أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْ حوزة الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ.
وَ هَلْ تُعْطَى الْمُؤَلَّفَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ؟
فِيهِ خِلَافٌ فرُوى عَنْ عُمَرَ وَعَامِرٍ الشَّعْبِيِّ وَجَمَاعَةٍ:-
أَنَّهُمْ لَا يُعطون بَعْدَهُ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَ أَهْلَهُ و مَكَّن لَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَ أَذَلَّ لَهُمْ رِقَابَ الْعِبَادِ.
وَ قَالَ آخَرُونَ: بَلْ يُعطَون لِأَنَّهُ ﷺقَدْ أَعْطَاهُمْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَ كَسْرِ هَوازن

الخامس:-(وَفِي ٱلرِّقَابِ)

و هم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم فهم يسعون فى تحصيل ما يفك رقابهم فيعانون على ذلك من الزكاة و فك الرقبة المسلمة التى فى حبس الكفار داخل فى هذا بل أولى

و يدخل فى هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالا لدخوله فى قوله:–(وَفِي ٱلرِّقَابِ)

*الترمذى 1655 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ:-
1-الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ 2-وَ الْمُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الْأَدَاءَ 3-وَ النَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ العَفَافَ

السادس:-(وَٱلۡغَٰرِمِينَ)و هم قسمان:–

أحدهما:–الغارمون لإصلاح ذات البين و هو أن يكون بين طائفتين من الناس شر و فتنة فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم فجعل له نصيب من الزكاة

ليكون أنشط له وأقوى لعزمه فيعطى و لو كان غنيا.

و الثاني:–من غرم لنفسه ثم أعسر فإنه يعطى ما يُوَفِّى به دينه.

*فَهُمْ أَقْسَامٌ:-

1-فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً أَوْ ضَمِنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ

2-أَوْ غَرِمَ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ فَهَؤُلَاءِ يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ.

وَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ قَبِيصة بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ كما فى:-

*مسلم(1044) عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ:-

تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً(الحمالة ه‍ى المال الذى يتحمله الإنسان أى يستدينه ويدفعه فى إصلاح ذات البين كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك)

فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺأَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ:-أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا قَالَ:-

ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ:-

1-تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ(أى إلى أن يجد الحمالة و يؤدى ذلك الدين ثم يمسك نفسه عن السؤال)

2-وَ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ(قال ابن الأثير الجائحة ه‍ى الآفة التى تهلك الثمار والأموال وتستأصلها وكل مصيبة عظيمة واجتاحت أى أهلكت) فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ(أى إلى أن يجد ما تقوم به حاجته من معيشة)-أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ–(القوام والسداد بمعنى واحد وهو ما يغنى من الشىء وما تسد به الحاجة وكل شىء سددت به شيئا فهو سداد ومنه سداد الثغر وسداد القارورة وقولهم سداد من عوز)

3-وَ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ(فقر وضرورة بعد غنى)حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِى الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ:-

(هكذا هو فى جميع النسخ حتى يقوم ثلاثة وهو صحيح أى يقومون بهذا الأمر فيقولون لقد أصابته فاقة والحجا مقصور وهو العقل وإنما قال ﷺمن قومه لأنهم من أهل الخبرة بباطنه والمال مما يخفى في العادة فلا يعلمه إلا من كان خبيرا بصاحبه)لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ-أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ-فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا(هكذا هو في جميع النسخ سحتا وفيه إضمار أي أعتقده سحتا أو يؤكل سحتا والسحت هو الحرام)سُحْتًا

*مسلم(1556) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-

أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ»

فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِغُرَمَائِهِ:-

«خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَ لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ»

و السابع: (وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)الغازى فى سبيل اللّه و هم:– الغزاة المتطوعة

الذين لا ديوان لهم فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم من:– ثمن سلاح أو دابة أو نفقة له و لعياله

ليتوفر على الجهاد و يطمئن قلبه.

و قال كثير من الفقهاء:–

إن تَفَرَّغَ القادر على الكسب لطلب العلم أعطى من الزكاة لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه.

و قالوا أيضا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه (و فيه نظر).

و الثامن:–(وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ)هو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده فهؤلاء

الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

(فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ)فرضها و قدرها تابعة لعلمه و حكمه حكما مقدرا بتقدير الله و فرضه و قسمته

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) و اعلم أن هذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين:-

أحدهما:- من يعطى لحاجته و نفعه كالفقير و المسكين و نحوهما.

و الثاني:- من يعطى للحاجة إليه و انتفاع الإسلام به فأوجب اللّه هذه الحصة في أموال الأغنياء لسد الحاجات الخاصة و العامة للإسلام و المسلمين

فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعى لم يبق فقير من المسلمين و لحصل من الأموال ما يسد الثغور و يجاهد به الكفار و تحصل به جميع المصالح الدينية ٦٠

صفات و جزاء المنافقين و المؤمنين 61-72

(وَمِنْهُمُ)أى:و من هؤلاء المنافقين

(ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ)بالأقوال الردية و العيب له و لدينه

(وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)أى:لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبى

و يقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك جئنا نعتذر إليه فيقبل منا لأنه أذن

أى: يقبل كل ما يقال له لا يميز بين صادق و كاذب

و قصدهم-قبحهم اللّه-فيما بينهم أنهم غير مكترثين بذلك و لا مهتمين به لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم و إن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:-

1-أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم و إخراجهم من الشقاء و الهلاك إلى الهدى و السعادة.

2-عدم اهتمامهم أيضا بذلك وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

3-قدحهم فى عقل النبى ﷺ و عدم إدراكه و تفريقه بين الصادق و الكاذب و هو أكمل الخلق عقلا و أتمهم إدراكا و أثقبهم رأيا وبصيرة

و لهذا قال تعالى:-(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ)أى: يقبل من قال له خيرا و صدقا.

و أما إعراضه و عدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب فلسعة خلقه و عدم اهتمامه بشأنهم و امتثاله لأمر اللّه فى قوله:-

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

وأما حقيقة ما فى قلبه و رأيه فقال عنه:-

(يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)الصادقين المصدقين و يعلم الصادق من الكاذب

إن كان كثيرا ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم و عدم صدقهم

(وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ)فإنهم به يهتدون و بأخلاقه يقتدون.

و أما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها فخسروا دنياهم و آخرتهم

(وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ)بالقول أو الفعل

(لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)فى الدنيا و الآخرة و من العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه و شاتمه٦١

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية و غيرها فغايتهم أن ترضوا عليهم.

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه و رضا رسوله

فدل هذا على:–انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير اللّه و رسوله.و هذا محادة للّه و مشاقة له62

و قد توعد من حاده بقوله:(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أى:–يكون فى حد و شق مبعد عن اللّه و رسوله بأن تهاون بأوامر اللّه و تجرأ على محارمه.

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ)الهوان و الذل(الْعَظِيمُ)

*الذى لا خزى أشنع و لا أفظع منه حيث فاتهم النعيم المقيم و حصلوا على عذاب الجحيم عياذا باللّه من أحوالهم

*كانت هذه السورة الكريمة تسمى«الفاضحة»لأنها بينت أسرار المنافقين و هتكت أستارهم

فما زال اللّه يقول:–و منهم و منهم و يذكر أوصافهم إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:–

1–أن اللّه سِتِّيرٌ يحب الستر على عباده.

2–أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين الذين توجه إليهم الخطاب و غيرهم إلى يوم القيامة

فكان ذكر الوصف أعم و أنسب حتى خافوا غاية الخوف63

قال الله(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا)

و قال هنا:-(يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم)تخبر و تفضح و تبين أسرار

(بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ)أى حتى تكون علانية لعباده و يكونوا عبرة للمعتبرين

(قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟)استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء و السخرية

(إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ)و قد وفَّى تعالى بوعده فأنزل هذه السورة التى بينتهم و فضحتهم و هتكت

أستارهم كقوله (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ) محمد: ٢٩ 64

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ)عما قالوه من الطعن فى المسلمين و فى دينهم يقول طائفة منهم فى غزوة تبوك

« ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء-يعنون النبى ﷺو أصحابه-أرغب بطونا و أكذب ألسنا و أجبن عند اللقاء »

و نحو ذلك و لما بلغهم أن النبى ﷺقد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه

و (لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)أى نتكلم بكلام لا قصد لنا به و لا قصدنا الطعن و العيب

قال الله-مبينا عدم عذرهم و كذبهم فى ذلك-(قُلْ)لهم

(أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ)

فإن الاستهزاء بالله و آياته و رسوله كفر مخرج عن الدين

لأن أصل الدين مبنى على تعظيم الله و تعظيم دينه و رسله

و الاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل و مناقض له أشد المناقضة

و لهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة و الرسول لا يزيدهم على قوله:-

(أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

(إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ)لتوبتهم و استغفارهم و ندمهم-و أخلصت فى توبتها

(نُعَذِّبْ طَآئِفَةً)جماعة منكم(بِأَنَّهُمْ)بسبب أنهم(كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ)مقيمين على كفرهم و نفاقهم

و فى هذه الآيات دليل على أن:-

1-من أسر سريرة خصوصا السريرة التى يمكر فيها بدينه و يستهزئ به و بآياته و رسوله

فإن الله تعالى يظهرها و يفضح صاحبها و يعاقبه أشد العقوبة

2-و أن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول

أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم

3–و أن التوبة مقبولة من كل ذنب و إن كان عظيما

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-تفسير ابن أبي حاتم-10047-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ:-
قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا:-مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ لَا أَرْغَبَ بُطُونًا وَ لا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً
وَ لا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ:- كَذَبْتَ وَ لَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لأُخْبِرَنّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ
وَ نَزَلَ الْقُرْآنُ قال عبد الله:-فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺتَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَ هُوَ يَقُولُ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ:-إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَقُولُ أبالله و آياته و رسوله كنتم تستهزؤن66

(ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ)لأنهم اشتركوا فى النفاق فاشتركوا فى تولى بعضهم بعضا
و في هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.
ثم ذكر وصف المنافقين العام الذى لا يخرج منه صغير منهم و لا كبير فقال:–

(يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ)و هو الكفر و الفسوق و العصيان.

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ)و هو الإيمان و الأخلاق الفاضلة و الأعمال الصالحة و الآداب الحسنة.

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)عن الصدقة و طرق الإحسان فوصفهم البخل.

(نَسُوا۟ ٱللَّهَ)فلا يذكرونه إلا قليلا

(فَنَسِيَهُمْ)عاملهم معاملة من نسيهم كقوله(وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)الجاثية: ٣٤
من رحمته فلا يوفقهم لخير و لا يدخلهم الجنة بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلدين.

(إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)
حصر الفسق فيهم لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم
و أن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم و الاحتراز منهم شديد67

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ)كفايتهم فى العذاب

(وَلَعَنَهُمُ)طردهم أو بعّدهم(ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

*جمع المنافقين و الكفار فى النار و اللعنة و الخلود فى ذلك:–

1–لاجتماعهم فى الدنيا على الكفر2–و المعاداة للّه و رسوله 3–و الكفر بآياته68

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ)أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ(كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ):-هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شُبِّهْنَا بِهِم

*البخارى3456 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ(سبل ومناهج وعادات)مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ (كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة لشرعه)وَ ذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ(ثقبه وحفرته التى يعيش فيها والضب دويبة تشبه الحرذون تأكله العرب والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ونتن ريحه وخبثه وما أروع هذا التشبيه الذى صدق معجزة لرسول الله ﷺفنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأمم الكفر فى الأرض فيما هى عليه من أخلاق ذميمة وعادات فاسدة تفوح منها رائحة النتن و تمرغ أنف الإنسانية في مستنقع من وحل الرذيلة و الإثم و تنذر بشر مستطير)لَسَلَكْتُمُوهُ»قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ:-اليَهُودَ وَ النَّصَارَى قَالَ:«فَمَنْ(أي يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم وهذا واضح أيضا فإنهم المخططون لكل شر والقدوة في كل رذيلة)»

(كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا)وَ قَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَ كْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا

(فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ)بِدِينِهِمْ-و تمتّعوا بما فيها من الحظوظ و الملذات

(فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ)بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة و الشهوة معرضين عن المراد منه و استعنتم به على معاصى اللّه و لم تتعد همتكم و إرادتكم ما خولتم من النعم

(كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ)كما فعل الذين من قبلكم

(وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟)و خضتم بالباطل و الزور و جادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق

فهذه أعمالهم و علومهم استمتاع بالخلاق و خوض بالباطل فاستحقوا من العقوبة و الإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم

*و أما المؤمنون فهم و إن استمتعوا بنصيبهم و ما خولوا من الدنيا فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة اللّه

*و أما علومهم فهى علوم الرسل و هى الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية و المجادلة بالحق لإدحاض الباطل.

(أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ)بَطَلَتْ(أَعۡمَٰلُهُمۡ)مَسَاعِيهِمْ فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ

(فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ)لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ.

(وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)ببيعهم نعيم الآخرة بحظوظهم من الدنيا69

يقول تعالى محذرا المنافقين:-

(أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ)أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة

(قَوۡمِ نُوحٖ)وَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِعَبْدِهِ وَ رَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام

(وَعَادٖ)كَيْفَ أُهْلِكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ لَمَّا كَذَّبُوا هُودًاعليه السلام

(وَثَمُودَ)كَيْفَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا عليه السلام وَ عَقَرُوا النَّاقَةَ

(وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ)كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ أَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ وَ أَهْلَكَ مَلِكَهُمُ النَّمْرُوذَ بْنَ كَنْعَانَ بْنِ كُوشَ الْكَنْعَانِيَّ لَعَنَهُ اللَّهُ

(وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ)

وَ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍعليه السلامو كَيْفَ أَصَابَتْهُمْ:-1-الرَّجْفَةُ 2-وَ الصَّيْحَةُ 3-وَ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ

(وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ)قرى قوم لوط وَ قَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ وَ قَالَ(وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى)[النَّجم: 53]

أَى:-الْأُمَّةَ الْمُؤْتَفِكَةَ وَ قِيلَ: أُمُّ قُرَاهُمْ وَ هِىَ "سَدُومُ".

وَ الْغَرَضُ:أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللَّهِ لُوطًاعليه السلاموَ إِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِى لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ.

(فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ) هود: ٨٢

فكلهم(أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ)

أى:بالحق الواضح الجلى المبين لحقائق الأشياء فكذبوا بها فجرى عليهم ما قص اللّه علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم

(فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ)إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع.

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)حيث تجرأوا على معاصيه و عصوا رسلهم و اتبعوا أمر كل جبار عنيد70

*لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض و وصفهم بضد ما وصف به

المنافقين فقال:–(وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ)أى: ذكورهم و إناثهم

(بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ)فى المحبة و الموالاة و الانتماء و النصرة.

*البخارى 481 - عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ(أى حال المؤمن فى تعاونه مع المؤمن)كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَ شَبَّكَ أَصَابِعَهُ

*البخارى6011 عن النُّعْمَان بْنَ بَشِيرٍ ﷺيَقُولُ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ(رحمة بعضهم بعضا)وَ تَوَادِّهِمْ(تحابهم)وَ تَعَاطُفِهِمْ(تعاونهم)

كَمَثَلِ الجَسَدِ(الجسم الواحد بالنسبة إلى جميع أعضائه)إِذَا اشْتَكَى(لمرض أصابه)عُضْوًا تَدَاعَى(شاركه فيما هو فيه)لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ

(عدم النوم بسبب الألم)وَ الحُمَّى(حرارة البدن و ألمه)»

(يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ)و هو:–اسم جامع لكل ما عرف حسنه من:–

العقائد الحسنة و الأعمال الصالحة و الأخلاق الفاضلة و أول من يدخل في أمرهم أنفسهم

*كقوله(وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) آل عمران: ١٠٤

(وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ)و هو:–

كل ما خالف المعروف و ناقضه من العقائد الباطلة و الأعمال الخبيثة و الأخلاق الرذيلة.

(وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ)لا يزالون ملازمين لطاعة اللّه و رسوله على الدوام

(أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ)أى: يدخلهم فى رحمته و يشملهم بإحسانه.

(إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ)أى:–قوى قاهر

و مع قوته فهو(حَكِيمٞ)يضع كل شيء موضعه اللائق به الذى يحمد على ما خلقه و أمر به﴿٧١﴾

ثم ذكر ما أعد اللّه لهم من الثواب فقال:–

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ)جامعة لكل نعيم و فرح خالية من كل أذى و ترح

(تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا)من تحت قصورها و دورها و أشجارها

(ٱلۡأَنۡهَٰرُ)الغزيرة المروية للبساتين الأنيقة التى لا يعلم ما فيها من الخيرات و البركات إلا اللّه تعالى.

(خَٰلِدِينَ فِيهَا)لا يبغون عنها حِوَلا

(وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ)قد زخرفت و حسنت و أعدت لعباد اللّه المتقين قد طاب مرآها و طاب منزلها و مقيلها و جمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون حتى إن اللّه تعالى قد أعد لهم غرفا فى غاية الصفاء و الحسن يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس و تنزع إليها القلوب و تشتاق لها الأرواح لأنها(فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ)إقامة لا يظعنون عنها و لا يتحولون منها.

*البخارى4878 عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺقَالَ:-

«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا(أوعيتهما)وَ مَا فِيهِمَا وَ جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَ مَا فِيهِمَا(من الأشياء التي يرتفق بها) وَ مَا بَيْنَ الْقَوْمِ(المسلمون الذين دخلوا الجنة)وَ بَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ(إقامة و استقرار و اطمئنان)

*البخارى4879 - عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَ مَا فِيهِمَا وَ جَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا وَ مَا فِيهِمَا وَ مَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَ بَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»

(وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ)يحله على أهل الجنة فَلاَ أَسْخَطُ الله عليهم أَبَدًا كما ورد فى الحديث

(أَكۡبَرُۚ)مما هم فيه من النعيم فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم و رضوانه عليهم و لأنه الغاية التى أمَّها العابدون و النهاية التى سعى نحوها المحبون فرضا رب الأرض و السماوات أكبر من نعيم الجنات.

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ)حيث حصلوا على كل مطلوب و انتفى عنهم كل محذور و حسنت و طابت منهم جميع الأمور فنسأل اللّه أن يجعلنا معهم بجوده.

*البخارى 6549 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ:- يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَ سَعْدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ:وَ مَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَ قَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ:-أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رَبِّ وَ أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟فَيَقُولُ:أُحِلُّ(أنزل و أوجب)عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا﴿٧٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ:-(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ)

أى:بالغ فى جهادهم و الغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

و هذا الجهاد يدخل فيه:-

1-الجهاد باليد 2-و الجهاد بالحجة و اللسان

فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد و اللسان و السيف و البيان.

*و من كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد فإنه يجاهد بالحجة و البرهان و يبين له محاسن الإسلام و مساوئ الشرك و الكفر فهذا ما لهم في الدنيا.

الأمر بالجهاد و انواع المنافقين و المعتذرين 73-103

(وَ)أما فى الآخرة(وَمَأۡوَىٰهُمۡ)مقرهم(جَهَنَّمُۖ)الذى لا يخرجون منها(وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ)73

(يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ)أى:إذا قالوا قولا كقول من قال منهم(لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ)

و الكلام الذى يتكلم به الواحد بعد الواحد فى الاستهزاء بالدين و بالرسول.

فإذا بلغهم أن النبى ﷺقد بلغه شيء من ذلك جاءوا إليه يحلفون باللّه ما قالوا.قال تعالى مكذبا لهم:-

(وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ)

فإسلامهم السابق-و إن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر-فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم و يدخلهم بالكفر.

(وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ)و ذلك حين هموا بالفتك برسول اللّه ﷺفى غزوة تبوك

فقص اللّه عليه نبأهم فأمر من يصدهم عن قصدهم.

(وَ)الحال أنهم(وَمَا نَقَمُوٓاْ)و عابوا من رسول اللّه ﷺ

(إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ)بعد أن كانوا فقراء معوزين

و هذا من أعجب الأشياء أن يستهينوا بمن:-

كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور و مغنيا لهم بعد الفقر و هل حقه عليهم إلا أن يعظموه و يؤمنوا به و يجلوه؟ فاجتمع الداعى الدينى و داعى المروءة الإنسانية.

*وَ مَا لِلرَّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَ يُمْنِ سِفَارَتِهِ وَ لَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ السَّعَادَةُ لَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِمَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺلِلْأَنْصَارِ

*البخارى 4330-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ رضي الله عنه قَالَ:-

لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺيَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ لَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ:-

أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَ كُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي»

كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ قَالَ:-«مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ».

قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ

*وَ هَذِهِ الصِّيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا ذَنْبَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [الْبُرُوجِ:8]

*البخارى 1468 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِالصَّدَقَةِ فَقِيلَ مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ وَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ وَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺمَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ

ثم عرض عليهم التوبة فقال:-

(فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ)لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا و الآخرة.

(وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ)عن التوبة و الإنابة

(يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا)

بما ينالهم من الهم و الغم و الحزن على نصرة اللّه لدينه و إعزاز نبيه و عدم حصولهم على مطلوبهم

(وَٱلۡأٓخِرَةِۚ)فى عذاب السعير.

(وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ)يتولى أمورهم و يحصل لهم المطلوب

(وَلَا نَصِيرٖ)

يدفع عنهم المكروه و إذا انقطعوا من ولاية اللّه تعالى فَثَمَّ أصناف الشر و الخسران و الشقاء و الحرمان74

(وَمِنۡهُم)و من هؤلاء المنافقين(مَّنۡ عَٰهَدَ)أعطى(ٱللَّهَ)عهده و ميثاقه

(لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ)من الدنيا فبسطها لنا و وسعها

(لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

فنصل الرحم و نقرى الضيف و نعين على نوائب الحق و نفعل الأفعال الحسنة الصالحة75

(فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ)لم يفوا بما قالوا

بل(بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟)عن الطاعة و الانقياد

(وَّهُم مُّعْرِضُونَ)أى:-غير ملتفتين إلى الخير

فلما لم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه عاقبهم(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ)مستمرا

(إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ)

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربه إن حصل مقصوده الفلانى ليفعلن كذا و كذا

ثم لا يفى بذلك فإنه ربما عاقبه اللّه بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

فهذا المنافق الذى وعد اللّه و عاهده لئن أعطاه اللّه من فضله ليصدقن و ليكونن من الصالحين حدث فكذب

و عاهد فغدر و وعد فأخلف.

*أَعْقَبَهُمُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَ كَذِبِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي البخارى 33

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﵁عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ

(وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ)77

و لهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقولـه:-

(أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)

و سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التى يعلمها اللّه تعالى

و هذا أيضا من مخازى المنافقين فكانوا-قبحهم اللّه-لا يدعون شيئا من أمور الإسلام و المسلمين يرون لهم

مقالا إلا قالوا و طعنوا بغيا و عدوانا

*فلما حثَّ اللّه و رسوله على الصدقة بادر المسلمون إلى ذلك و بذلوا من أموالهم كل على حسب حاله منهم

المكثر و منهم المقل فيلمزون المكثر منهم بأن قصده بنفقته الرياء و السمعة78

و قالوا للمقل الفقير:-إن اللّه غنى عن صدقة هذا فأنزل اللّه تعالى:-

(ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ)يعيبون و يطعنون(ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ)

فيقولون:–مراءون قصدهم الفخر و الرياء.

(و) يلمزون(وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)طاقتهم و وسعهم

فيخرجون ما استطاعوا و يقولون:–اللّه غنِي عن صدقاتهم(فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ)

فقابلهم الله على صنيعهم بأن(سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

*وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ وَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ سَخِرَ بِهِمْ انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَ أَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أليما

*فإنهم جمعوا فى كلامهم هذا بين عدة محاذير:–

1–تتبعهم لأحوال المؤمنين و حرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم و اللّه يقول:–

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

2–طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفر باللّه تعالى و بغض للدين.

3–أن اللمز محرم بل هو من كبائر الذنوب فى أمور الدنيا و أما اللمز فى أمر الطاعة فأقبح و أقبح.

4–أن من أطاع اللّه و تطوع بخصلة من خصال الخير فإن الذى ينبغى هو إعانته و تنشيطه على عمله

و هؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم و عابوهم عليه.

5–أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مراء غلط فاحش و حكم على الغيب و رجم بالظن و أى شر أكبر

من هذا؟!!

6–أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة:–«اللّه غنى عن صدقة هذا»كلام مقصوده باطل

فإن اللّه غنى عن صدقة المتصدق بالقليل و الكثير بل و غنى عن أهل السماوات و الأرض

و لكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه فاللّه–و إن كان غنيا عنهم–فهم فقراء إليه

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)و فى هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين

و لهذا كان جزاؤهم أن سخر اللّه منهم و لهم عذاب أليم

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 1415 عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:-

لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ(هى قوله{خذ من أموالهم صدقة})كُنَّا نُحَامِلُ(نتكلف الحمل على ظهورنا بالأجرة لنكتسب ما نتصدق به)

فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا:-

مُرَائِي وَ جَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا:-إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا فَنَزَلَتْ:-

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ}[التوبة: 79] 79

. . . .

ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

(ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ)على وجه المبالغة و إلا فلا مفهوم لها.

*يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُﷺبِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلاسْتِغْفَارِ وَ أَنَّهُ لَو اسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَ لَوْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ.

وَ قَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَّةِ الاسْتِغْفَارِ لَهُمْ لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَسَالِيبِ كَلَامِهَا تَذْكُرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةِ كَلَامِهَا وَ لَا تُرِيدُ التَّحْدِيدَ بِهَا وَ لَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا.

(فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ)كما قال فى الآية الأخرى

{ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المنافقون: 6]

ثم ذكر السبب المانع لمغفرة اللّه لهم فقال:-

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ)و الكافر لا ينفعه الاستغفار و لا العمل ما دام كافرا.

(وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ)أى:الذين صار الفسق لهم وصفا بحيث لا يختارون عليه سواه و لا يبغون به بدلا يأتيهم الحق الواضح فيردونه فيعاقبهم اللّه تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

*يقول تعالى مبينا تبجح المنافقين بتخلفهم و عدم مبالاتهم بذلك الدال على عدم الإيمان و اختيار الكفر على الإيمان

(فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ)الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ(بِمَقۡعَدِهِمۡ)بقعودهم فى المدينة

(خِلَٰفَ)مخالفين لـــــ(رَسُولِ ٱللَّهِ)ﷺ

*و هذا قدر زائد على مجرد التخلف فإن هذا تخلف محرم و زيادة رضا بفعل المعصية و تبجح به.

(وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)

و هذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا – و لو لعذر–:–

1–حزنوا على تخلفهم

2–و تأسفوا غاية الأسف

و يحبون أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه:–

1–لما فى قلوبهم من الإيمان

2–و لما يرجون من فضل اللّه و إحسانه و بره و امتنانه.

(وَقَالُواْ)أى:المنافقون(لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ)

قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

و حذروا من الحر الذى يقى منه الظلال و يذهبه البكر و الآصال على الحر الشديد الذى لا يقادر قدره

و هو النار الحامية.

و لهذا قال:–(قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا)

*البخارى3265 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
«نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً(فى تعذيب أهل النار)
قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ(على نيران الدنيا و فى رواية (عليها) ولعلها أرجح لأن المفضل عليه مفرد و المعنى أنها زادتها فى العدد و الكمية)
بِتِسْعَةٍ وَ سِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»

(لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ)لما آثروا ما يفنى على ما يبقى

*لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَ يَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ لِيَتَّقُوا بِهِ حَرَّ جَهَنَّمَ الَّذِى هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ هَذَا وَ لَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ الْآخَرُ :-

و المستجير بعمرو عند كربته...كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ ﴿٨١﴾

*و لما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية إلى المشقة الشديدة الدائمة قال الله تعالى:–

(فَلْيَضْحَكُواْ)أى:–فليتمتعوا فى هذه الدار المنقضية و يفرحوا بلذاتها و يلهوا بلعبها(قَلِيلًا)

(وَلْيَبْكُواْ)فسيبكون(كَثِيرًا)فى عذاب أليم

(جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)من الكفر و النفاق و عدم الانقياد لأوامر ربهم﴿٨٢﴾

(فَإِن رَّجَعَكَ)رَدَّكَ(ٱللَّهُ)مِنْ غَزْوَتك هَذِهِ

(إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ)الذين تخلفوا من غير عذر و لم يحزنوا على تخلفهم

(فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ)لغير هذه الغزوة إذا رأوا السهولة.

(فَقُل)لهم عقوبة(لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ)فسيغنى اللّه عنكم.

(إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ)

و هذا كما قال(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)الانعام: 110

*فَإِنَّ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا كَمَا أَنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا كَمَا قَالَ فِي عُمرة الْحُدَيْبِيَةِ:-

{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ} [الْفَتْح: 15]

*فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة:–

لا يوفق له بعد ذلك و يحال بينه و بينه. و فيه أيضا تعزير لهم

فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم كان ذلك توبيخا لهم

و عارا عليهم و نكالا أن يفعل أحد كفعلهم(٨٣)

(وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا)من المنافقين

(وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ)

بعد الدفن لتدعو له فإن صلاته و وقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم و هم لا تنفع فيهم الشفاعة

(إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ)

و من كان كافرا و مات على ذلك فما تنفعه شفاعة الشافعين

*و فى ذلك عبرة لغيرهم و زجر و نكال لهم و هكذا كل من علم منه الكفر و النفاق فإنه لا يصلى عليه.

و فى هذه الآية دليل على:–

مشروعية الصلاة على المؤمنين و الوقوف عند قبورهم للدعاء لهم كما كان النبى ﷺيفعل ذلك فى المؤمنين

فإن تقييد النهى بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررا فى المؤمنين(٨٤)

(وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ)أى: لا تغتر بما أعطاهم اللّه فى الدنيا من الأموال و الأولاد

فليس ذلك لكرامتهم عليه و إنما ذلك إهانة منه لهم (راجع تفسير الاية55 من السورةالكريمة)

*البخارى 4672 عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:-

جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ وَ أَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ

فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بِثَوْبِهِ فَقَالَ: تُصَلِّي عَلَيْهِ وَ هُوَ مُنَافِقٌ وَ قَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ؟ قَالَ:-

إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ-أَوْ أَخْبَرَنِي اللَّهُ-فَقَالَ:{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}[التوبة: 80]

فَقَالَ سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَ صَلَّيْنَا مَعَهُ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ:

{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة: 84]

*البخارى4671 عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:-

لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَ ثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَ قَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا(إشارة إلى يوم معين أبهمة):- كَذَا وَ كَذَا (كناية عن أقوال أبهمها)

قَالَ:أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ(أقواله الخبيثة والتى تظهر نفاقه)فَتَبَسَّمَ(سرورا و تعجبا من صلابة عمر ﷺو شدة بغضه للمنافقين)رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وَ قَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ»فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ:

«إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا»

قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ:-

{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: 84] إِلَى قَوْلِهِ {وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: 84]

قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ ﴿٨٥﴾

(إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا)

1–فيتعبون فى تحصيلها 2–و يخافون من زوالها 3–و لا يتهنئون بها.

4–بل لا يزالون يعانون الشدائد و المشاق فيها

5–تلهيهم عن اللّه و الدار الآخرة حتى ينتقلوا من الدنيا

قد سلبهم حبها عن كل شيء فماتوا و قلوبهم بها متعلقة و أفئدتهم عليها متحرقة.

(وَتَزۡهَقَ)تخرج(أَنفُسُهُمۡ)بموتهم(وَهُمۡ كَٰفِرُونَ)بالله و رسوله.

*يقول تعالى فى بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات و أنها لا تؤثر فيهم السور و الآيات:–

(وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ)يؤمرون فيها بالإيمان باللّه و الجهاد

(ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ)أولى الغنى و الأموال الذين لا عذر لهم

(مِنۡهُمۡ)و قد أمدهم اللّه بأموال و بنين

أفلا يشكرون اللّه و يحمدونه و يقومون بما أوجبه عليهم و سهل عليهم أمره و لكن أبوا إلا التكاسل و الاستئذان فى القعود

(وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ)العاجزين عن الخروج ﴿٨٦﴾

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

أى:-كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد

(وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)مصالحهم .هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟

أم طبع الله على قلوبهم فلا تعى الخير و لا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير و الفلاح؟

*فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التى تحطهم عن منازل الرجال87

(لَٰكِنِ)يقول تعالى:-إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد فاللّه سيغنى عنهم و للّه عباد و خواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر و هم(ٱلرَّسُولُ)محمد ﷺ

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ)غير متثاقلين و لا كسلين بل هم فرحون مستبشرون

(وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ)الكثيرة فى الدنيا و الآخرة

(وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)الذين ظفروا بأعلى المطالب و أكمل الرغائب﴿٨٨﴾

(أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه و خسر دينه و دنياه و أخراه

و هذا نظير قوله(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)

و قوله:(فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

(وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ)جاء الذين تهاونوا و قصروا منهم فى الخروج(لِيُؤۡذَنَ)لأجل أن يؤذن

(لَهُمۡ)فى ترك الجهاد غير مبالين فى الاعتذار لجفائهم و عدم حيائهم و إتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

و أما الذين كذبوا اللّه و رسوله منهم فقعدوا و تركوا الاعتذار بالكلية

و يحتمل أن معنى قوله:-

(ٱلۡمُعَذِّرُونَ)الذين لهم عذر أتوا إلى رسول الله ﷺليعذرهم و من عادته أن يعذر من له عذر

(وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ)فى دعواهم الإيمان المقتضى للخروج و عدم عملهم بذلك

و قعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله ﷺ

ثم توعدهم بقوله:-(سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)فى الدنيا و الآخرة90

لما ذكر المعتذرين و كانوا على قسمين:- 1-قسم معذور فى الشرع 2-و قسم غير معذور

ذكر ذلك بقوله:-(لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ)فى أبدانهم و أبصارهم الذين لا قوة لهم على الخروج و القتال.

(وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ)و هذا شامل لجميع أنواع المرض الذى لا يقدر صاحبه معه على الخروج و الجهاد من :-

1-عرج 2-و عمى 3-و حمى 4-و ذات الجنب 5-و الفالج و غير ذلك.

(وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ)أى:-لا يجدون زادا و لا راحلة يتبلغون بها فى سفرهم

فهؤلاء ليس عليهم(حَرَجٌ)إثم(إِذَا نَصَحُواْ)أخلصوا(لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ)و عملوا بشرعه

*بشرط أن ينصحوا للّه و رسوله بأن يكونوا صادقى الإيمان و أن يكون من نيتهم و عزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا و أن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث و الترغيب و التشجيع على الجهاد.

(مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ)يكون عليهم فيه تبعة فإنهم-بإحسانهم فيما عليهم من حقوق اللّه و حقوق العباد-أسقطوا توجه اللوم عليهم و إذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه.

*مسلم (1911) عَنْ جَابِرٍ ﷺقَالَ:-كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺفِي غَزَاةٍ فَقَالَ:-
«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَ لَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»

و يستدل بهذه الآية على قاعدة و هى:-

*أن من أحسن على غيره في نفسه أو فى ماله و نحو ذلك ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف أنه غير ضامن لأنه محسن و لا سبيل على المحسنين

*كما أنه يدل على أن غير المحسن–هو المسيء–كالمفرط أن عليه الضمان.

(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)و من مغفرته و رحمته عفا عن العاجزين و أثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين91

(وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ)فلم يصادفوا عندك شيئا

(قُلۡتَ)لهم معتذرا:–(لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ)انصرفوا

(وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا)أسفا

(أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ)

فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم و قد صدر منهم من الحزن و المشقة ما ذكره اللّه عنهم.فهؤلاء لا حرج عليهم

*و إذا سقط الحرج عنهمعاد الأمر إلى أصله و هو أن من نوى الخير و اقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه ثم لم يقدر فإنه ينزل منزلة الفاعل التام92

(إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ)يتوجه و اللوم يتناول

(عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ)قادرون على الخروج لا عذر لهم

فهؤلاء(رَضُواْ)لأنفسهم و من دينهم

(بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ)كالنساء و الأطفال و نحوهم.

(و)إنما رضوا بهذه الحال لأن اللّه

(وَطَبَعَ)ختم(ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ)فلا يدخلها خير و لا يحسون بمصالحهم الدينية و الدنيوية

(فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)عقوبة لهم على ما اقترفوا93